

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

الرجل الذي آمن

The man who believed

Dr. Naguib Al Keilany

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

اصدار متميز

Special Edition

The **man** who **believed**

الرجل الذي آمن

Design by Abdul Rahman Magdy



دار الصحوة للنشر والتوزيع

Telefax: +202 42 10 60 60

Mobil:+20 1114520485

daralsahoh@gmail.com

الرجل الذي آمن

روَايَة

من الأدب الإسلامي المعاصر

تأليف

د. نجيب الكيلاني



الطبعة الأولى

1437هـ - 2015م

رقم الإيداع

2015/13319

الترقيم الدولي

9- 466- 255-977-978



القاهرة - تليفاكس: 0020242146060

موبيل: 00201114520485

daralsahoh@gmail.com

1

قيل له: «اذهب يا «إريان» إلى الشرق، بلاد السحر والجمال والأسرار، وانزل على شاطئ الخليج فهو – كما يقولون– ساحل الذهب الأسود، واستمتع بعالم جديد فيه غرابة ومتعة.. ولكن لا تنس حقوق الرب عليك» في هذه الكلمات التي أسكرت مشاعره، وفتحت أمامه آفاق الخيال الواسع الرحب، وخاصة أن روما، بل إيطاليا كلها أصبحت مملّة صاخبة.. تعج بالسباق المجنون من أجل المال والسياسة، وتنتشر فيها ألوان الفساد، وعصابات المافيا، وخراب الذمم، «لكن إيطاليا وطنك يا إريان.. نعم أعرف أنها وطني.. ولن أنسى ذلك ما حييت لكن.. آه.. ماذا أقول؟ إنني أريد أن أرحل» تذكر صديقته الحبيبة صوفيا.. لكن هي جميلة ومسلية!! لكنها لا تفكر إلا في الرحلات والمرح والليالي الحمراء، وهي مرشدة سياحية تنفق كل دخلها على متعتها الشخصية، ولا تفكر إلا في نفسها، أو نزهاتها، وتكاد تكون قد نسيت أهلها الذين يعيشون في مدينة أخرى في الغرب..

قال لها:

- «سوف أرحل يا صوفيا».

- «خذني معك يا إريان».

- «سأقيم هناك فترة قد تطول».

- «وكيف أبقى هنا بدونك؟».

- «من يدري، قد أجد لك فرصة هناك».

قالت في دهشة:

- «في هذه البلاد الصحراوية؟».

- «إن دبي من أجمل المدن.. يسمونها لؤلؤ الخليج».

وعلمت صوفيا منه أنه قد تعاقد كعضو في فرقة موسيقية، تعزف ألحانها في أحد فنادق دبي، وأنها تجربة مثيرة جدًا بالنسبة له، وأنه سوف يتقاضى مرتبًا كبيرًا يربو على ثلاثة آلاف دولار أمريكي بالإضافة إلى الإقامة والمأكل والمشرب والمواصلات قالت صوفيا:

- «هي فرصة ذهبية».

- «وهذا المبلغ يكفينا معًا يا صوفيا إذا لم تجدي عملًا».

- «ما معنى ذلك؟ أتقصد الزواج؟».

- «ولم لا؟».

ضحكت في عبث وقالت:

- «لا أرغب في الاستسلام للقيود هكذا مبكرًا».

- «ستتزوجين يومًا ما يا صوفيا».

- «ليس الآن، ولا بهذه السرعة».

- «وما يمنع؟».

- «أريد أن أتذوق الحياة».

كان يدرك معنى كلماتها تمامًا، وعلى الرغم من الضيق الذي ألم به، إلا أنه يدرك العرف السائد، ومسارات التفكير والأخلاق بين شباب مدينته، وفي إطار عصره، فهو لا يستطيع أن يقنعها أو يرغمها، فكل شيء اليوم مباح، والتحلل حرية. والهروب من مسؤوليات الزواج تقليد، والانغماس في المتعة والملذات هدف أو غاية، لشد ما يتألم ويحزن إنه يحب صوفيا، وصوفيا حسبما يعتقد تحبه، لكن الطوفان الجارف يكتسح أمامه الكثير من القيم. ويسفه البديهيات، ويدوس على الأعراف العريقة.. قال لنفسه «كل المعاني الجميلة تموت في هذه المدينة.. علمه أبوه القسيس أن المحبة أقوى، وأن النظر إلى السماء أفضل، وأن التسامح جنة الموعودين، لكنه أدرك من قديم أنها مجرد

كلمات تكتب في الأوراق، أو تلقى على الأسماع في الكنائس، لكن الناس في الشوارع والشركات والدواوين والحانات والمراقص يعيشون بطريقة أخرى، ويؤمنون بأفكار وسلوكيات مغايرة، إنه يحترم أباه، لكن أباه إما أنه لا يرى ولا يسمع. أو أنه يتشبث بخيوط الأمل الواهية.. ولا يختلف اثنان على أن روما غابة، ونوادي السياسة والبورصات وأروقة الفن وغيرها.. كلها تشكل أجزاء من هذه الغابة الكبيرة المليئة بالذئاب والثعالب والوحوش الضارية قال له أبوه:

- «إذا وصلت هناك فكن يقظًا، واملك نفسك تملك الدنيا، وافعل ما شئت ما دمت مؤمنًا به، وواثقًا بنفسك.. الغرباء لا تحرسهم أموالهم ولا أسلحتهم يا ولدي إريان، لكن يحرسهم العقل الواعي، والروح الملهمة..».

قال إريان في أسى:

- «أما العقل فموجود، وأما الروح فهي تائهة تتخبط في الضباب».

- «ما هذا اليأس يا ولدي».

دمعت عيناه وقال:

- «ألقتني صوفيا خارج حياتها، كما تلقي بثوب رث لم تعد في حاجة إليه.. وأنا إنسان أحبها...».

هزَّ الأب رأسه قائلًا:

- «وما هو الحب يا بني؟».

- «شركة بين اثنين».

- «ليس حبًّا.. بل مشروع تجاري، عملية اقتصادية».

- «فماذا يكون يا أبي؟».

- «شعور سام يخفق في صدرك أنت وحدك».

- «ولم لا يبادلني الآخر نفس الشعور».

- «قد لا يحدث.. وقد يحدث..».

- «لكنه يجب أن يحدث.. الحب من طرف واحد محكوم عليه بالتعاسة».

- «ومع ذلك فهناك من ينعمون بهذا الحب...».

- «كيف؟».

- «ليست صوفيا كل الدنيا».

- «كانت لي الدنيا بأسرها».

- «بل قطرة في محيط.. تتبخر.. ثم تعود وتتكثف..».

تنهد إريان في حسرة وقال:

- «عندما تطأ قدماي الأرض الجديدة.. فسأبدأ من جديد.. وسأنسى..».

- «وقد لا تنسى.. المهم أن تستمر الحياة..»..

- «أجل.. تستمر الحياة..».

وكانت أمه تشهد الموقف بقلب خافق، إن إريان ولدها الوحيد، لكن الاغتراب عندهم أمر وارد، والناس يرحلون ويعودون، وقد لا يعودون، لكن توقدًا في قلبها يتأجج، ويبكي، ويعشق، إنه شعور الأمومة الذي لا ينطفئ أبدًا.. بكت، قال إريان:

- «لماذا لا تبكين يا أمي؟ سيكون بيني وبينكم بضع ساعات في الطائرة».

- «ذلك لأني أحبك..».

- «أعرف..».

- «أتعذب عندما أفكر... متى سألقاك».

تدخل الأب قائلًا:

-«تلقينه عندما تشاءين، ليس بين الأرواح حجاب أو مسافات...».

قالت الأم:

- «كان ذلك في العصور القديمة».

- «الرب قادر على أن يجمعنا».

عادت تقول:

- «يجمعنا عنده».

رد إريان:

- «ما هذا التشاؤم يا أمي».

- «ليس تشاؤمًا، ولكني أحبك...».

- «وأنا أحبك...».

- «فلترحل، تباركك العناية الربانية..».

في يوم السفر حمل آلته الموسيقية «الأورج» إلى سيارة نقل صغيرة، ومعها بعض الملابس والكتب، ثم غرق وسط الزحام في مطار روما الكبير ذي الأبواب الكثيرة لم يكن يعي ما تضلقه مكبرات الصوت في المطار من تعليمات مختلفة بشتى اللغات.. ضحك.. قال: «حتى المطار يبدو كالغابة»، كان مشغولًا بأعباء السفر ومشاقه، فنسي إلى حد كبير همومه الخاصة والعامة، إن تفكيره الآن محصور في الرحلة، وفي المدينة التي سوف يلقى

شطآنها رحاله، وسمع صوتًا يهتف «إريان.. إريان.. إريان» التفت إلى الخلف، وجد صوفيا تهرول نحوه، وصافحته، ثم طوقته وقبلته قبلة طويلة لم يشعر بحرارتها.. وحانت منه التفاتة فوجد شابًا يقف إلى جوارها، ولم تتركه صوفيا يضرب أخماسًا في أسداس، بل تراجعت قليلًا وقدمت له مرافقها على أنه صديقها.. تعني أحد أصدقائها.. فتبادلا الابتسام والمصافحة في برود.. تمنى أن يصفعها.. لكن لا يستطيع.. لقد دبرت صوفيا أمورها قبل أن يرحل، سرعان ما وجدت البديل.. آلمه ذلك أشد الألم، شعر أنه لا شيء.. مجرد رقم.. رقم يمكن محوه أو نسيانه.. الآن أحس أنه يكرهها، ويكره روما، بل ويكره العالم كله.

قالت: «ماذا أصابك يا إريان؟ أنت شاحب مكتئب».

قال: «أحزان التغيير..».

- «السفر متعة».

- «الرحيل عذاب».

- «سأفتقدك يا إريان».

- «إن لك صداقات تشغلك عني يا صوفيا».

- «أوه يا إريان.. المتخلفون وحدهم هم الذين يغارون».

- «كيف أكون رجلًا دون أن أغار؟».

ضحكت من قلبها وقالت:

- «لقد أصبحت مثل الشرقيين».

- «الغيرة الواجبة توجد في الشرق والغرب على السواء..».

- «الناس تحضروا يا إريان».

- «أعرف.. لكنهم يفقدون كل مقومات النبل...».

ضحكت مرة أخرى وقالت:

- «لشد ما أنا سعيدة بعواطفك هذه، إنها تسعد المرأة، وتذكرها بعصر روميو وجولييت...».

انحنى في أدب دون أن يزايله شحوبه واكتئابه وقال:

- «الوداع..».

ومضى صوب الطائرة، دون أن يلتفت إلى الوراء..

❊ ❊ ❊

2

دهش إريان حينما نزل بمطار مدينة دبي لبساطة البناء، وللمسات الجمال والدقة التي تتجلى في كل ركن من أركانه، ولسرعة الحركة وانضباط النظام، كان يظن أنه قادم إلى منطقة صحراوية بدوية على الرغم من أن الجميع أكدوا له غير ذلك قبل، لكن ظن أنه نوع من المبالغة والدعاية، وازدادت دهشته حينما سارت به السيارة في السيارة في الشوارع الجميلة المرصوفة النظيفة، وعلى الجانبين مبان فخمة تتألق كالجواهر، وأسواق تجارية نشطة، وأندية رياضية، وأماكن للعب الأطفال، وحدائق خضراء بديعة للترفيه وقضاء العطلات، إن هذه الأشياء بدت لعيني إريان وكأنها لا تقل روعة عما في روما وميلانو إن لم تكن أروع، كما وجد بالشوارع خليطًا من البشر بأزيائهم المختلفة، وملامحهم المتباينة، ولهجاتهم المتنوعة، ومن العجيب أنه أدرك لأول وهلة ارتياحه لما يرى ويسمع، وشعر بتآلف حميم مع هذا المجتمع الذي يدلف إليه لأول مرة، ابتسم

إريان، وملأ رئتيه من الهواء وهو يسير بحذاء الخليج ذي المياه الزرقاء النقية، وابتسم وهو يرى القوارب التي تعبر الخور ذهابًا وإيابًا.. ومما لفت نظره أيضًا النظام الدقيق لحركة المرور وخاصة في الميادين وتحت الأنفاق، وفوق الجسور.. تمتم: «يا إلهي.. ما هذه الروعة كلها؟؟».

والمذهل أيضًا أن إريان رأى كثيرًا من النساء الأجنبيات حاسرات الرؤوس، ينطلقن في حرية، وإن رأى بعض المحجبات والمنقبات، لقد كان يسمع في روما، ويقرأ أيضًا، أن النساء في مثل هذه البلاد، لا يغادرن البيوت، ولا يخالطن الرجال، وعندما سأل أحد مرافقيه «علي» عن ذلك ضحك من معلوماته الخاطئة وقال:

- «النساء هنا يخرجن للتعليم محتشمات، بل إن عدد الإناث في المؤسسات التعليمية أكثر من عدد الذكور، وهن يعملن في الوظائف الحكومية، ويمارسن التجارة، ويظهرن على شاشة التليفزيون، ويتحدثن في الإذاعة، ويكتبن في الصحف والمجلات.. الحرية هنا شاملة لكنها منضبطة وواضحة المعالم..».

قال إريان في لهفة:

- «وأين الإبل».

- «تراها في مضمار السباق، إنها من أمتع الرياضات.. بعض جمال السباق بلغ ثمنها عشرة ملايين درهم.. هل تتصور؟».

لم يخف على إريان أن معلوماته القديمة زائفة، وأن العالم كله يتبدل ويتحول، وخالجه شعور غامر بالفرحة، وتأكد له أنه يدخل دنيا جديدة لها مذاقها الخاص، سأل مرافقه علي:

- «أتوجد هنا كنائس؟».

- «ومساجد، ومعابد للسيخ وغيرهم.. حرية العبادة مكفولة للجميع.. ولا إكراه في الدين.. هذه عقيدتنا.. وسياستنا..».

- «لكن لماذا تجلدون شاربي الخمر؟».

- «هذا ديننا، ودينكم أيضًا يحرمها.. الخمر لا يحللها دين.. لكن..».

- «لكن ماذا؟».

- «الأجانب لهم وضع خاص، نحن لا نجلدهم...».

- «هذا شيء مطمئن..».

وضحك إريان، خيِّل إليه أن الميزات في هذه البلاد ترجح، وأنه أكثر سعادة واستفادة، وأن المستقبل يبدو مشرقًا وواعدًا، وفي الليلة الأولى التي جلس يعزف فيها بين الجوقة، أحس أنه

يمارس هوايته برغبة ورضى، كان هناك مجموعة من العاملين الأجانب في الشركات يرقصون ليلة الأحد، وكانوا رجالًا ونساءً يتمايلن تحت الأضواء المحمرة، الجميع يمرحون ويبتسمون، خيل إليه أنه لم يغادر روما، لكن الشيء العجيب الذي لفت نظره هو ذلك الأمان الذي يخيم على الجميع.. سأل علي ذات مرة:

- «أليس عندكم عصابات؟».

- «ماذا تقصد يا سيد إريان؟».

- «عندنا في إيطاليا مافيا.. ولصوص.. وقطاع طرق».

- «ولماذا تنشأ العصابات هنا أصلًا؟ الناس كلهم أيدي عاملة، يكدحون وينالون أجورهم، وهي تكفيهم وزيادة، قد يفد إلينا بعض محترفي السرقة من بلاد أخرى، لكننا نكشفهم على الفور.. هنا أكثر من مائة جنسية يعيشون في انسجام تام.. يصعب أن يكون لديك مصدر للرزق وتسرق...».

- «صدقت أيها الصديق علي..».

- «أنا أعمل في العلاقات العامة بهذا الفندق منذ خمس سنوات ولم تحدث حالة سرقة واحدة..».

- «أيمكن أن يكون هذا هو المجتمع الفاضل الذي تحدثت عنه الكتب».

- «ليس تمامًا.. لكننا هنا نعتقد أن المجتمع الفاضل هو الذي يسير في كنف القيم الروحية الفاضلة..».

في برنامج الحفل فقرة أخيرة، هذه الفقرة تحييها راقصة شرقية، فكر إريان هل يستطيع أن يعزف بعض الموسيقى الشرقية التي تتناسب مع الفقرة؟ ليدع الأمر حتى تبدأ الرقصة: إن أصابعه على الأورج ماهرة، ويستطيع أن يستلهم إيقاعاته من وحي الموقف، إنه كما يقال يعزف سماعيًا، أي يسمع القطعة الموسيقية، ثم يقلدها بمهارة.

كان يجلس منتظرًا وسط الجوقة، رآها تمرق من جانب الساحة، ثم توسطتها وهي ترقص في حركة سريعة متناغمة، كانت سمراء فاتنة، منسدلة الشعر الفاحم، مكحولة العينين، ممشوقة القوام، تصايح بعض الحضور «شمس.. شمس.. شمس» وجد نفسه هو الآخر يصيح شمس.. شمس.. كما وجد أصابعه ويديه تدقان على الأورج نغمات راقصة تتماوج مع حركات الراقصة.. اندمج معها تمامًا.. لكأنها هي التي تحرك أصابعه خلال تيار سحري خفي، لم يكتف إريان بالعزف جالسًا وسط الفرقة، بل وقف.. وأخذ يتقافز وهو يعزف.. كان كمن يرقص هو الآخر، تبسم أعضاء الفرقة الموسيقية، ولاحظت الراقصة شمس ما يفعل فابتسمت هي الأخرى، وأخذت تقترب منه وتميل نحوه، لو كان يستطيع حمل الأورج، لفعل

وانطلق يجري وراءها راقصًا معها.. لقد شرب كأسين قبل الحفل، هل هذا مفعول الخمر؟ ليكن.. إنه يشعر بسعادة قصوى الآن.. لقد أعطى عزفه المتحمس للرقصة مذاقًا خاصًّا، ويبدو أن ذلك انعكس على المشاهدين، فأخذوا يصفقون ويتصايحون بلغاتهم المختلفة، بدا لهم أن ذلك الرقص أجمل كثيرًا من رقصات الجاز المجنونة المتشنجة.

انتهى الحفل، وذهب إريان مع رفاقه لتناول العشاء، وبعدها ذهب إلى غرفته في الفندق، لبس ملابس النوم، وخفف من الأضواء، ثم استلقى على سريره، لكن عينيه كانتا مفتوحتين، ولا يشعر بأدنى رغبة في الاستغراق في النوم، إن خيال شمس يلح عليه ويملأ رأسه، ولا يغيب عن ناظريه، لقد تسلطت عليه بصورة لا يمكن الخلاص منها، إنها تشيع في جنبات روحه وكيانه الدفء والحيوية.

بدت له «صوفيا» الحبيبة السابقة شيئًا تافهًا باردًا لا قيمة له، لم يعد يشعر بأية غيرة إزاءها، فلتذهب أينما شاءت، ولتصادق من تحب، فإن هذا لم يعد يهمه في قليل أو كثير.. وإريان يعجب من هذا الانقلاب المباغت الذي قلب حياته رأسًا على عقب، لم يكن يتصور أن الأقدار سوف تشفيه من حب صوفيا، لكن الشرق كما يقال مهبط المعجزات..

3

يجد إريان صعوبة تذكر في حياته الجديدة، فالناس في هذه المدينة يألفون ويؤلفون، يتعاملون برقة، ويتجاوبون في بساطة وكان من أهم الأمور التي يسرت له سبيل حياته إلمامه باللغة الإنجليزية والألمانية، وقليل من الفرنسية واليونانية، وحاول منذ البداية أن يلتقط كلمات أساسية في اللغة العربية، وساعده على ذلك المرشد «علي» موظف العلاقات العامة بالفندق، كما ساعدته الراقصة شمس التي وجد لديها قبولًا، وكانت هي الأخرى تستطيع التفاهم بالإنجليزية البسيطة، وكتب إريان لأبيه رسالة مطولة عن حياته في مدينة دبي وفي الفندق، كما طمأن أباه على أنه يذهب كل أحد إلى الكنيسة لأداء الصلوات، وسماع الوعظ، ويقرأ بعض صفحات من الإنجيل كلما سمحت له الظروف بذلك، وأكد له أنه يعيش في بحبوحة من العيش، وأنه يستمتع بالكثير من الاستقرار النفسي والفكري، بل يخيل إليه أحيانًا أن هذه البلاد هي الجنة الموعودة

التي كان يحلم بها منذ أمد بعيد، وأن الرب راض عنه لأنه كتب عليه أن يأتي إلى هذا الشاطئ الساحر الذي لا ينقصه شيء من مقومات السحر والجمال، بل إن المدينة مليئة بالأندية الرياضية المختلفة، وأنه في وقت الفراغ يذهب إلى نادي «الجولف» الشهير أو إلى نادى كرة الطاولة، ويشارك في مباريات الشطرنج الذي يحظى بالاهتمام، وإن لم يستطع أن يحقق بطولات في هذه اللعبة أو تلك، ذلك لأن اهتمامه الأكبر منصب على الموسيقى، وبالمناسبة ذكر لأبيه في تلك الرسالة أن أهل البلاد لهم تراث شعبي متميز في الموسيقى والغناء. وأخذ يشرح له الآلات الموسيقية في الخليج، وأغاني البحارة والصيادين والمزارعين، وأغاني الأفراح والموالد وتقاليد الزواج والولادة وغيرها من الأمور الحياتية، ولم ينس أن يخبر أباه بظاهرة غريبة لفتت نظره، وهي أن مساجد الصلاة مفتوحة للمسلمين في كل يوم وفي كل وقت وليس يوم الأحد فقط، وأن أهم يوم عندهم هو يوم الجمعة، حيث يحتشد الناس في المساجد التي تضيق بهم، فيفترشون الأرض في الشوارع أو الميدان القريب، كما أن الناس يذهبون إلى الصلاة في المساجد خمس مرات في اليوم، وهو شيء غريب لا يراه في إيطاليا، ولم يسمع به في أوروبا.. وقال في رسالته: «يخيَّل إليَّ يا أبي أن الناس هنا أكثر اتصالًا وثقة بالله.. وأنهم لا يخافون من الغد، وهم ماهرون في التجارة، ويتمتعون

بغير قليل من الكبرياء والثقة»، ولم يخف عن أبيه أن قلبه قد تعلق براقصة شرقية تعمل معه في الفرقة، ذات جمال مثير، وتختلف عن كثير من النساء في روما، تبدو أمام ناظريه وكأنها كنز للفتنة والسحر.. أتخيلها أحيانًا بدوية رائعة الحسن.. ظهرت لي وأنا تائه في صحراء قاحلة، وبيدها إبريق من الذهب الخالص به ماء مثلج يحيي الروح، ويطفئ الغلة، وعلى مقربة منها واحة خضراء.. ونخيل.. وأعناب.. وينابيع.. آه يا أبي.. لو وافقت على الزواج لتزوجت منها فورًا.. أعرف أنك ستقول لي لابد أن تتأنى وتدرس أخلاقها وطباعها.. لكنني أعترف لك بأني مندفع إليها بكل جوارحي وروحي، لكنني أكبح جماح نفسي، وأحاول جاهدًا أن أتصبر حتى تنمو العلاقات بيننا نموًا طبيعيًا، وأعتقد أنها ترتاح لرؤيتي والجلوس معي، والأنس لحديثي، وهي منشغلة بعملها الفني، وتحقيق الكسب من ورائه أكثر من الاهتمام بأي شيء آخر، وعلى الرغم من أن المعجبين من حولها يتزاحمون ويسيل لعابهم إلا أنها لا تعطيهم إلا الفتات، ولا تتنازل عن شموخها وكبريائها..

والواقع أن شمس قد استولت على قلب إريان تمامًا، فكان ينتهز أي فرصة للبقاء معها، ومجاذبتها أطراف الحديث، وكانت هي -لذكائها- تقرأ في عينيه ما يعتمل في داخله من حب وإعجاب شديدين، لكنها -وهي ذات الخبرة الطويلة- كانت

قد التقت في مسيرتها الفنية بكثيرين من أمثاله، وكان أغلبهم ينصرفون إلى حياتهم بعد أن يصطدموا بصمودها وعنادها، إن من يقتربون من المجال المغناطيسي للراقصة ينجذبون إليها، وكلهم يتشهاها، لكن موقفها دائمًا يكون العامل الحاسم في الحكم على مثل تلك العلاقة الطارئة..

حاول إريان أن يخفي ضيقه بصعوبة حينما رأى شمس تجلس مع أحد الشباب التجار المرموقين في كافيتريا الفندق ذات مساء، كان شابًا وسيمًا يفيض بالحيوية والصحة والبسمة لا تغادر فمه، ووجد إريان نفسه مندفعًا إليها.

- «هل تسمحين لي بالجلوس؟».

رسمت ابتسامة مجاملة على ثغرها، والتفتت إلى صديقها العربي وقالت:

- «أعتقد أن مستر صقر لا يمانع».

شاركهما إريان الشراب وقليلًا من الطعام الخفيف، واشتركوا في أحاديث ليست لها أهمية تذكر، لكنه ظل متوترًا طول الوقت، بينما كان الشاب العربي هادئًا باسمًا يتصرف بلباقة وثقة شأن الإنسان الذي تعود على مثل تلك المواقف.

قال صقر:

- «إن نصف أيامي أقضيها في الأسفار.. بريطانيا واليابان وسنغافورة وتايوان وأمريكا تحظى بالنصيب الأوفر من وقتي.. إن تجارتنا واسعة، ولدينا وكالات عالمية كثيرة...».

قال إريان:

- «هل تسافر إلى إيطاليا».

- «أجل.. وأخذت توكيلًا لاستيراد السيارات منذ أكثر من عشر سنوات».

ثم تناول قطعة من الكنافة واستطرد:

- «ولي هناك أصدقاء وصديقات».

أردف إريان»:

- «المال يفتح الطريق إلى كل القلوب».

تدخلت شمس قائلة:

- «ليس المال هو كل شيء».

بينما قال صقر:

- «إنها المصالح المتبادلة.. أنت أوربي وتعرف يا سيد إريان».

- «أعرف أن هذا العالم الفاسد تسيطر فيه المادة على كل شيء...».

رد صقر بهدوء:

- «لا أنكر أهمية المادة، لكنها ليست كل شيء».

- «التجارة مسألة مادية بحتة...».

- «ربما.. لكن المشاعر الإنسانية لا تنفصل عن أي عمل من أعمالي وهذا هو الفرق بيني وبين الكثيرين من قرنائي...».

قال إريان في إصرار وتشدد:

- «إمبراطوريات المال ليس لها قلب».

عادت شمس للتدخل مرة أخرى وهي تقول:

- «إريان.. ماذا بك؟ إن أمور الحياة لا تسير على هذا الأسلوب الجامد».

ضحك صقر وهو يشرب:

- «إن إعجابي بموسيقاك ليس شيئًا ماديًا بالتأكيد، وكذلك انبهاري بفن شمس...».

صفقت شمس في مرح مبدية إعجابها بما يقوله صقر، ومؤيدة له، بينما لاذ إريان بالصمت، وهو يفرك يديه في عصبية، وفوجئ بصقر يقف متباطئًا ويقول:

- «هل ستأتين معي لسوق «الغرير» لشراء ما يلزمك...».

هبت شمس واقفة في سعادة وحماسة وهي تقول:

- «بالتأكيد... لن أضيع هذه الفرصة الثمينة...».

واستأذنت من إريان، وأحنت رأسها محيية وهي تبتسم له، وبقي جالسًا وحده بعد أن انصرفا تتقاذفه الشكوك والأوهام، إن الغيرة تأكله، والغضب يعصف به، ليس وراء النساء غير الغم والنكد، إن شمس لا تختلف عن صوفيا، وصوفيا صورة أوروبية من شمس، لعنة الله على النساء جميعًا إلا أمي، أنت تعلمين أنني أحبك يا شمس يا من سلبت روحي، فلماذا لا تراعين مشاعري؟ لماذا لا تعطينني بالمقابل مثلما أعطيتك من روحي وكياني؟ لقد رويت لك قصة حياتي كاملة، وشرحت لك عقوق صوفيا واستهتارها، وكنت تبدين السخط عليها، والانتقاص منها، حتى خيل إليَّ أنك رمز المصالحة بيني وبين زماني الذي تنكر لي بالأمس، جريح الجناح، لا أستطيع التحليق والانتشار في سمائك الجميلة.. هل كتب على الشقاء والهزيمة، وهل من العدل أن أرى عجزي الفاضح، وفشلي المشين مرة أخرى؟؟ وهل هذا عدل؟ متى أشعر بالإنصاف وأجد مشاعر تحوط قلبي بالحب والحنان الدافئ؟ أم أن الحرمان قد كتب عليَّ هنا وهناك.

قال مواصلًا حديثه مع نفسه:

- «والله لن أترك هذا المكان حتى تعود شمس، ولن أنام حتى أعرف منها بالتفصيل ماذا فعلت بالخارج مع هذا الـ.... صقر ولا بد أن أحسم الموقف...».

***

4

جاءت شمس تتواثب كالغزالة الرشيقة، كان الوقت متأخرًا، والفجر اقترب، وفي يدها أكياس مليئة، لم تشغل بالها بالجالسين في قاعدة الاستقبال بالفندق، بل تفكر فحسب في التقاط مفتاح غرفتها من الموظف المختص، كي تسرع إلى المصعد، وتلوذ بغرفتها وتنام، لكن إريان انطلق وراءها، وحياها فنظرت إليه قائلة:

- «أما زلت يقظان؟».

- «ما هذا الذي معك».

- «خيرات الله».

- «بل رشوة من الشيطان».

- «لا تكن سيئ النية هكذا».

- «هنا كل شيء له ثمن يا شمس».

- «أعرف، لكن صقر كريمًا معي.. إنه إنسان.. انظر إلى هذه الملابس الفاخرة.. وتفحص هذه الأسورة والمجوهرات.. وهذا الحذاء، وتلك الحقيبة.. إنها بالنسبة لي ثروة كبيرة.. لكنها بالنسبة لرجل ملياردير لا تساوي شيئًا...».

قال إريان في مرارة، وقد بدأ الحزن على وجهه:

- «والثمن؟».

- «أوه.. إنك شكاك، لا أسمح لك أن تطعنني في شرفي..».

هزَّ رأسه في دهشة:

- «لا أستطيع أن أفهم».

- «لأنك حمار محدود الأفق.. ذلك كله مجرد تعبير لائق عن الإعجاب بي، والتقدير لفني.. وهذا شيء سائد هنا».

لم تكن لديها رغبة في مزيد من المناقشة، ولم تكن راضية عن الأسلوب الذي يتَّبعه إريان معها، برغم إيمانها العميق بأنه يحبها بصدق، وكادت تغلظ له في القول، لكنها كانت تلتمس له المعاذير، فهو لم يألف مثل هذه الاجواء من قبل، وليست لديه الخبرة بما يجري في مراقص بيروت، أو شارع الهرم بمصر، أو الساحات الفنية في بغداد ودمشق والجزائر وتونس.. قالت له:

- «اطمئن يا حبيبي.. أنا أعرف كيف أحافظ على نفسي».

- «يصعب عليَّ أن أصدق كلما نظرت إلى هذه الهدايا الثمينة..».

قالت في سخرية:

- «العاشق في روما يذرف الدموع، ويحلق في الأحلام، أما هنا فالمعجب يذرف دموعًا في الدولارات والذهب، وقد لا ينتظر سوى كلمة شكر..».

-«العشاق لا يختلفون في أية بقعة على الكرة الأرضية».

- «بل يختلفون.. دعني فإني مرهقة وأريد أن أنام حتى الظهيرة..».

تفكر قليلًا، ثم رفع إليها عينين متوسلتين:

- «هنالك حل..».

- «قل وخلصني..».

- «الزواج.».

ضحكت قائلة:

- «أتمزح؟».

- «لم أكن جادًا في حياتي مثلما أنا الآن».

- «مستحيل».

قال متوترًا:

- «لماذا؟».

- «لأن المسلمة لا يحل لها أن تتزوج إلا مسلمًا..».

- «وما معنى ذلك؟».

- «أنت مسيحي، وأنا مسلمة.. والزواج مستحيل».

- «لماذا؟».

- «هكذا عقيدتنا، لكن المسلم يمكن أن يتزوج الكتابية».

- «لا أريد أن أبحث الأسباب الآن، لكن أخبريني ماذا أفعل؟».

- «تعتنق الإسلام».

- «وما هو الإسلام يا شمس؟».

- «لا أعرف الكثير، ولكن عليك أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.. وأشياء أخرى غير ذلك..».

قال وهو يفكر بعمق:

- «أرشديني.. صفي لي الطريق.. أريد أن أعرف..».

- «حق، ولن تسلم إلا إذا عرفت ودرست..».

- «من أجلك يهون كل شيء...».

- «أتسلم من أجلي يا إريان».

- «بالتأكيد...».

- «إيمان زائف».

- «ماذا تقولين؟».

- «أقول إنك يجب تؤمن لأنك اقتنعت بالإسلام، وبأنه الدين الحق..».

- «سأفعل يا شمس».

- «فلتذهب إلى رجل يعلمك أصول الدين».

- «من الغد وأنا مستعد...».

- «حسنًا.. تصبح على خير..».

بينما كانت شمس تغط في نوم عميق، وتحتضن الهدايا الثمينة التي أغدقها عليها صقر، والتي سوف تعود بها إلى وطنها، وهناك تستطيع التفكير في القيام بمشروعات فنية تدر عليها دخلًا كبيرًا، تجعلها في غنى عن المتاعب والمشاق، بينما كانت تفعل ذلك كان إريان مستيقظًا يفكر جديًا في شمس، وفيما قالته له، هل يمكن أن يتخلى هكذا ببساطة عن ديانته من أجل امرأة، وأبوه قسيس يعظ الناس، ويبشر بينهم برسالة المسيح؟ وماذا سيقول أبوه؟ وبماذا ستعلق أمه؟ وما سيكون عليه موقف صوفيا

التي أهملته؟ وأصدقاؤه في روما؟ وزملاؤه هنا في فرقة الموسيقا.. لكنه عاد أخيرًا وأقنع نفسه بأنه من الواجب أن يأخذ فكرة عن ا لديانات الأخرى ثم يختار العقيدة التي يراها أقرب إلى العقل والقلب، وماذا في ذلك، قد تكون هذه الدراسة عن الإسلام مدعاة لترسيخ عقيدته الأصلية، ولا يحتاج إلى اعتناق دين جديد.. هو لا ينكر أن شمس هي المحرك الأول لهذا الموقف الجديد، لكن القناعة الأكيدة وحدها هي المحك الصحيح لاتخاذ أي قرار يتعلق بعقيدته..

وابتسم في خبث وقال: «العقيدة في القلب.. يمكنني أن أنطق باللسان كلمات.. مجرد كلمات لأحقق رغبتي، وأبقى على عقيدتي في قلبي وعقلي سرًا.. الكثيرون في هذا العالم يفعلون ذلك، ولا يشعر بهم أحد.. العالم كله قائم على الغش والكذب والخداع».

وفكَّر إريان، ترى من يقصد كي يعرف الحقيقة؟ لم يكن أمامه سوى صديقه المرشد علي، إنه رجل أمين صادق خجول، لا يتوانى عن تقديم أية خدمة تطلب منه، إذا كان في استطاعته أداؤها سأله:

- «ما الإسلام يا علي؟».

- «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن تؤمن بجميع الأنبياء والرسل السابقين والكتب المنزلة، وأن تصلي وتزكي وتحج إلى بيت الله إن كنت مستطيعًا، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، وبالآخرة والجنة والنار.. وأن...».

- «ألديك كتب بالإنجليزية».

- «أستطيع أن أدبرها لك».

- «بشرط أن تعطيني فكرة كاملة عن الإسلام».

- «بالتأكيد.. لكن لابد لك من عالم يشرح لك ما غمض عليك».

- «دلَّني عليه».

- «اسمه الشيخ جلال الدين.. في المسجد الكبير.. ولديه تلامذة يجيدون فهم الدين والتحدث بلغات شتى...».

- «نعم هذا هو الطريق..».

كان إريان يعاني من القلق والاضطراب، إن ما هو مقدم عليه أمر خطير ومصيري، صحيح أن الناس في أوروبا يختارون معتقداتهم دون حرج تحت شعار حرية الفكر والعقيدة، ويفصلون بين الدين والدنيا، والدين والسياسة، ومشاعرهم نحو الدين ومبادئه قد تضاءلت إلى حد كبير، لكن هناك تعصبًا موروثًا، يجعل التارك لدينه في نظرهم رجلًا ناقصًا منفلتًا..

ولا شك أن وضع إريان سيكون أشد صعوبة وحرجًا بسبب مكانة أبيه الدينية المرموقة، لكن لماذا يسبق الأحداث ويتوقع البلاء قبل نزوله؟ فلينتظر حتى يرى ما سيحدث، إن دراسته للإسلام أو أي دين مسألة مباحة، ولا غرابة فيها.. إنها مجرد رحلة استكشافية، يقتحم فيها المجهول، ويكشف عن المستور، ثم يعود إلى مرفأ البداية من جديد، ليراجع حساباته، ويقيم حصيلته، ثم يصدر قراره.. فهل على ذلك غبار؟ وهل الحياة إلا رحلات استكشافية متصلة، يتعلم الإنسان فيها كل يوم جديدًا، فيأخذ ويترك، ويكفر ويؤمن، ويصادق ويعادي، ويكسب ويخسر؟؟

قال له صديقه الموسيقى الإيطالي بينيتو:

- «أيها الفنان إريان، ما الذي قذف بك في هذا الموج العاتي؟؟».

قال إريان:

- «البحث عن الحقيقة».

- «بل الحب الأعمى يا إريان».

- «ربما تكون البداية هي الحب يا بينيتو، لكنه فتح أمامي طرقًا وعرة، أجد نفسي مندفعًا إليها بقوة.. أريد أن أعرف مهما تكبدت من مشاق..».

- «أيها العزيز إريان.. عش كما نعيش.. واسبح في عالم الأنغام، وحلق بروحك في السماء.. واقتطف الزهور من البساتين..».

قال إريان في أسى:

- «ليتني أستطيع..».

- «ليس هذا وقت الزواج يا إريان.. ولا أعتقد أن الراقصة الجميلة تصلح لك، وحتى أنت لا تصلح لها.. ألا تعرف حياة الفنانين والفنانات؟».

نظر إريان حواليه، ثم رفع رأسه إلى أعلى وقال كالحالم:

- «أعترف أني أحبها أقوى الحب.. لكنها يا بينيتو أصبحت رمزًا.. معنى.. قضية.. مصير..».

- «أيها الأبله، أكل هذا من أجل امرأة..».

- «لم أفهمها.. وأريد أن أفهمها..».

- «لن تستطيع فهم الشرق ولو عشت فيه مائة عام..».

- «لم أر مثلها طول حياتي..».

لم يكن بينيتو راغبًا في مثل تلك المناقشات السوفسطائية، لكنه أنهى الجدل بكلمات عابثة إذ قال:

- «خذ إجازة.. وسافر إلى روما.. وادفع مبلغًا لغانية من غواني الليل هناك.. واستمتع.. ثم عُد إلينا.. وسنجدك قد شفيت تمامًا من حمى الحب الرومانسي القاتل...».

إن إريان لم يعد يطيق الاستماع لمثل هذه الآراء الفجة، وليست لديه أدنى رغبة في مجرد التفكير بها، ذلك لأنه يكره العيش حول ضفاف المستنقعات أو الخوض فيها.

قالوا له إن هناك أسقفًا إفريقيًا قد أشهر إسلامه، وأصبح يدعو إلى الإسلام، فتبعه مئات الألوف من البشر هناك، وأنه حضر إلى دبي بدعوة من وزارة الثقافة والإرشاد ليلقي محاضرة عن حياته في المسيحية والإسلام، فبادر إريان بالذهاب إلى المحاضرة، وكان من حسن حظه أنها بالإنجليزية أساسًا، وأن هناك مترجمًا بالعربية، لشد ما سعد بهذه المحاضرة، فقد قدمت له تجربة حية مثيرة، تكاد تشابه تجربته، وقيل له أن داعية إسلامي كبير اسمه «أحمد ديدات» من جنوب أفريقيا قد عقد جلسات حوار علنية في بريطانيا مع علماء الدين المسيحي وقساوسته، وأن هذه الحوارات مسجلة على أشرطة فيديو بالإنجليزية، وقيل له أن سفيرًا ألمانيًا في إحدى الدول العربية قد درس الإسلام واعتنقه، وقدم مؤلفًا رائعًا عن الإسلام عقيدة المستقبل، فبادر لشراء الكتاب، ثم أحضروا له مؤلفات المفكر الفرنسي جارودي

زعيم الحزب الشيوعي هناك عن اعتناقه للإسلام، وغير ذلك كثير.. كان إريان يلتهم الكتب التهامًا، وكان مذهولًا أمام روعتها، أدرك فعلًا أنه يدلف إلى عالم حي مثير لم يكن يتوقعه أو يتخيله، إنه يميط اللثام عن حقائق كثيرة رائعة شوهتها العنصريات والتعصب والأحقاد.

كانت شمس ترقص كل ليلة، وكان يعزف لها مع الفرقة وهو كالغائب عن الوجود، وكان يركز نظراته عليها، دون أن يراها، وهي تلوح له وهو يهز رأسه كالمخمور.

- «إريان.. ماذا دهاك في هذه الأيام؟».

- «اسألي نفسك يا شمس...».

- «أين ذهب إريان الذي أعرفه؟».

- «ذهب يبحث عن الحقيقة...».

- «الحب هو الحقيقة؟».

- «وأين أجده..».

قالت وهي تضحك وتقبض يديها وتفتحها:

- «عُد إليَّ.. وستجده عندي».

- «أعرف.. وسأعود..».

- «لقد هجرتني..».

- «وكيف أهجرك وأنت في دمائي؟».

- «أصبحت شاعرًا متصوفًا يا إريان».

قال وهو يهم واقفًا:

- «دعيني أواصل البحث.. وسأعود.. عندما أجد الحقيقة».

***

5

حينما جلس بين يدي الشيخ في مسجد «الكاز» المعروف في دبي قال له وهو يرمقه بنظرات حانية:

- «ماذا تريد يا إريان يا ابن حواء وآدم؟».

نظر إريان إليه، كان الشيخ «عيد الحسيني» ذا بشرة بيضاء مشربة بالحمرة، ولحية منسقة، وعينين صافيتين تشعان ثقة ويقينًا، وشعر إريان بالارتياح قال:

- «أريد أن أعرف الطريق الصحيح إلى الله يا أبتاه..».

ابتسم الشيخ في دعة وقال:

- «أنا عبدٌ من عبيد الله».

- «عبد!.. كيف يا سيدي؟؟».

- «نعم عبد..».

ثم أخذ الشيخ يطوح رأسه ويقول:

- «كلنا عبيده.. محمد عبد الله ورسوله.. عيسى عبد الله ورسوله.. والسلاطين والملوك الذين يضعون التيجان فوق رؤوسهم.. كلهم عبيد له، خاضعون لمشيئة.. ولا يملكون لأنفسهم موتًا ولا حياةً ولا نشورًا..».

وفتح الشيخ عينيه وقال وهو يشير بسبابته اليمنى:

- «التواضع يفتح الطريق.. والسؤال هو باب العلم..».

- «أجل...».

- «ولن يصح إيمانك إلا إذا آمنت بإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والأنبياء جميعًا، والكتب المنزلة الصحيحة التوراة والإنجيل والقرآن..»

قال إريان في دهشة:

- «هل الإسلام هكذا..؟».

- «لا نفرق بين أحدٍ من رسله..».

- «ومحمد؟؟».

- «خاتم الأنبياء.. جاء بعد أن اكتمل نضج البشرية، واستنفدت التجارب القديمة.. وكانت معجزته عقلية.. القرآن.. شريعة الله ومنهاجه.. لم يحول محمد العصا إلى ثعبان..

ولم يُحيي الميت.. ولم يأت بطوفان يغرق الكفار.. بل أخذ الكلمة.. بالحكمة والموعظة الحسنة.. كان لديه جواب لكل سؤال.. إن أردت أن تعرف فخذ الحقيقة من مصادرها الأصلية..».

- «أين هذا المصدر؟».

- «قلت لك: القرآن.. سنقدم لك ترجمة إنجليزية له أعني ترجمة لمعانيه..».

قال إريان:

- «هكذا وحدي؟».

- «في ديننا لا وساطة بين العبد وربه».

- «أشعر بالرهبة».

- «معك الله».

- «كيف يكون معي وقد ثقلت خطاياي، ولم أؤمن بعد؟».

- «الباحثون عن الحق يرعاهم الله.. وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، قال لربه: أرني كيف تحيي الموتى قال: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ قال: ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة:260].

- «هكذا؟؟».

- «نعم من حق طلاب الحقيقة أن يتساءلوا ويبحثوا.. وتذكر قاعدتنا الإسلامية الواردة في القرآن ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:256].

وأمسك الشيخ عيد الحسيني بيد إريان بقوة، وهو يسدد إليه نظرات حازمة:

- «لتكن نيتك خالصة لوجه الله والحق، وحذار أن تحركك نزوة، أو يدفعك مال، أو تغريك سلطة..».

قال إريان وهو يهيم بنظراته في أرجاء المجلس:

- «أحببتها.. أردت الزواج.. أفهمتني باستحالة ذلك إلا إذا كنت مسلمًا.. سألتها عن الإسلام قالت: اذهب وابحث عنه بنفسك فأنا لا أعرف إلا القليل.. وخرجت من شرنقتي العتيقة لأرى الشمس، وأتنفس الهواء.. وأبحث عن الحق..».

ابتسم الشيخ..

- «وستجده يا إريان، وعندما تجده تشبث به، ذلك لأنه أغلى كنوز الدنيا..».

قال إريان:

- «أرى في عينيك إشراقة الصباح، وعلى وجهك نور الصدق».

- «ما أنا إلا عبد ضعيف لا يسلم من الأخطاء...».

كان تلامذة الشيخ يتحلقون حوله بالمسجد، وقد تطوع أحدهم بالقيام بالترجمة بينه وبين إريان، ولاحظ إريان أنهم ليسوا منقطعين للعبادة فبعضهم أطباء ومهندسون ومدرسون، والبعض الآخر من العمال الفنيين بشتى الحرف، وبعد أن تنتهي الصلاة يبادرون بالعودة إلى أعمالهم ويتعاونون جميعًا في قضاء الحاجات، ولا يبخلون بخدماتهم على من يطلبها منهم، ولا يلجأون إلى فحش القول، أو يدخنون التبغ، أو يشربون الخمر، أو يغشون مجالس اللهو والشراب، وسأل إريان في سذاجة:

- «ألا توجد موسيقى بالمسجد؟».

ضحك مرافقه علي وقال:

- «ولماذا الموسيقى؟ إنه مكان عبادة، ويحتاج للهدوء، حتى يتفرغ المصلون لمناجاة ربهم.. إن لذة الخشوع والقرب من الله أمتع من كل مغريات الدنيا بالنسبة للمؤمن.. إن في قلبه مهرجانًا من الأفراح القدسية لا تدانيها أية سعادة دنيوية، وفيلسوف الإسلام وشاعره محمد إقبال الباكستاني يقول:

دع لأهـــل الغـــرب رقـــصًا بالجـــسوم

إن رقـــص الـــروح مـــن ضرب الكلـــيم

وأخذ علي يشرح له معنى الشعر، كما روى له قصة الكليم وهو سيدنا موسى حينما ضرب الحجر بعصاه فتفجر الماء، ودارت مناقشة حول الفن والدين، فقال له علي بإيجاز:

- «إن كل ما يسمو بالروح والعقل، وينهض بهما، فهو في الإسلام مباح، والعكس صحيح.. تلك هي القاعدة..».

حينما عاد إريان إلى الفندق كانت ساعة الحفل المسائي قد اقتربت، وهو لا يستطيع أن يتخلف عن عمله الذي يرتزق منه، إن الفتور الذي يسيطر عليه لا يصح أن يدفعه إلى الإهمال والتخلف، وإلا طردوه من الفرقة وهو في فترة حرجة من فترات حياته، استراح قليلًا ثم قصد إلى موقعه في الفرقة.. كانت «شمس» ترقص وتقول:

الله يـــــــا ليـــــــل الله

الله يـــــــا ليـــــــل الله

الحلـــــــوة قـــــــابلتني

ويعينيهـــــــا بـــــــصت لي

مالـــــــت وغمـــــــزت لي

أنـــــــا قلـــــــت آهـــــــين وآه

الله يـــــــا ليـــــــل الله

الله يـــــــا ليـــــــل الله

كانت الطبلة ترافقها في رقصتها وغنائها، وكان إريان يعرف معنى كلمات الأغنية، فقد شرحتها له شمس من قبل، لأنها تغنيها كل ليلة.

ورأى إريان صقر وهو يقف ويتراقص مع الموسيقى والأغنية وشعر بالضيق والغضب، إنه عاجز عن أن يفعل شيئًا إزاء هذا الغريم الذي يملك كل مؤهلات النصر والتفوق. ولم يجد إريان مناصًا من أن يجلس إلى «الأورج» ويحاول أن يستخرج أنغامًا شرقية تتوافق مع رقص وغناء شمس، لكنه كان يفتقر إلى الكثير من الحماسة، واقتربت منه شمس وهي ترقص وتبتسم، ومالت برأسها للخلف نحوه، ولامس شعرها المنسدل جانب وجهه، أحسَّ بقشعريرة تسري ببدنه. طلبت منه أن يغني معها، ويقلد صوتها.. ابتسم.. وحاول أن يفعل، ولكنه بلكنته الإيطالية التي تدعو إلى الضحك.. وأخذ بعض المشاهدين يصفقون، ويتغنون، ويميلون طربًا، لكن الذي ضايق إريان ملاحظته بأن شمس تولي صديقها الثري صقر الكثير من الاهتمام والمجاملة. في آخر السهرة قال له صديقه بينيتو:

– «هل عثرت على الحقيقة».

– «ليس بعد...».

قال بينيتو وهو يشير إلى رأسه.

- «الحقيقة هنا في رأسك.. إنها ليست من الآثار والتحف القديمة التي ينبشون الأرض بحثًا عنها..».

قال إريان:

- «إن كل شيء يحتاج إلى بحث وتفكير..».

***

3

لحظات من اليأس والضيق كثيرًا ما تنتاب إريان، تموجات حياته أصبحت حادة ومزلزلة، يصعد ويهبط، ويسرع ويبطئ، ويبتسم ويكفهر، كان جالسًا في بهو الفندق، يتصفح كتابًا عن «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» لأحد علماء الأزهر، والكتاب مترجم إلى الإنجليزية، كان منهمكًا في الكتاب، مستغرقًا في معانيه الكبيرة، غائبًا عن كل ما حوله، وأمامه فنجان من القهوة لم يمس حتى أصبح باردًا، لكنه سمع صوتًا انتزعه من أفكاره.

- «كيف حالك يا إريان؟».

رفع عينيه عن الكتاب، رأى «شمس» وإلى جوارها صقر، خفق قلبه، وشحب وجهه، ونظر مكروبًا دون أن يرد، وارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء، لم تمهله شمس، بل اقتربت منها مصافحة وهي تقول:

- «نحن في رحلة لزيارة مزرعة صقر.. أتريد أن تأتي معنا؟ إن جو الشتاء دافئ وجميل هنا».

لقد تعاورته الظنون عندما نطقت عبارتها الأولى إذ كيف تذهب وحدها مع رجل غريب، إلى ذلك المكان المنعزل، لكن سرعان ما هدأ انفعاله، وتلاشت شكوكه إلى حد كبير عندما دعته لمرافقتها، ووجد نفسه مدفوعًا دفعًا لا يقاوم بقبول عرضها فأبدى موافقته، لكنه استأذن في تغيير ملابسه في خلال دقائق كل ذلك وصقر يقف باسمًا هادئًا، مما جعل إريان يقول في نفسه:

- «إن صقر يتصف بصفات الغربيين، بينما أنا على النقيض منه أصبحت شرقيًا غيورًا، وهذا أمر يصعب تصديقه» كانت المزرعة التي تترامى في قلب صحراء منطقة «الزير» التابعة لإمارة «الشارقة» مليئة بالأشجار المثمرة وغير المثمرة، فيها النخيل وأشجار المانغو، والبرتقال والليمون والرمان والتفاح وغيرها من الفواكه، كما اشتملت على أنواع الخضراوات كالجرجير والفجل والبصل والطماطم، بالإضافة إلى الزهور المتنوعة، ورأى إريان وشمس بها بعض الدواجن والأغنام والماعز والبقر.. قال صقر:

- «هنا عدد من الفلاحين المدربين من الهند ومصر، وهم ذوو كفاءة عالية تدعو للإعجاب..».

وابتسم صقر وهو يواصل كلامه قائلًا:

- «لقد أنشأت هذه المزرعة في البداية للاستمتاع الشخصي والاستجمام.. لكنني فوجئت بأن إنتاجها وفير جدًا، لهذا لم أرَ مانعًا من تسويق محاصيلها، وهي تدر دخلًا كبيرًا لم أكن أتوقعه..».

وأضاف في سعادة:

- «إن الأموال تتزاحم على جيوبك، وتطاردك في إلحاح عندما لا تريدها، أو عندما تزهد فيها...».

قالت شمس وقد اتسعت عيناها في شراهة:

- «أما أنا فالأموال تهرب وتزوغ مني.. هكذا الدنيا، تركع تحت أقدام من يحتقرها..».

ردَّ صقر في صدق:

- «أنا لا أحتقرها.. وأعمل لدنياي كأني أعيش أبدًا، وأعمل لآخرتي كأنني أموت غدًا.. هذا معنى ما يقول نبينا..».

قال إريان في شيء من السخرية:

- «أمثلك يتحدث عن الدين والأنبياء؟».

- «ولم لا؟ إنني أصلي وأصوم وأدفع الزكاة و...».

قاطعه إريان بقوله:

- «وتعابث النساء، وتشتري الجواري».

تضايق صقر قليلًا، ولكنه كظم ضيقه، وكذلك فعلت شمس التي قالت مدافعة:

- «صقر رجل مهذب، ولا يقدم على ا لأمور الشائنة».

- «هذه شهادة يعتز بها السيد صقر.. وخاصة أنها منك..».

قال صقر دون أن يتخلى عن وقاره وهدوءه:

- «الآنسة شمس لم تجانب الحقيقة».

- «الحقائق عند رجال المال والأعمال يا سيد صقر نسبية».

- «بالضبط يا سيد إريان..».

وهمس إريان وهو ينظر إلى الأرض الخضراء التي امتلأت بالحشائش:

- «كلما أردت تعمقًا في التفكير بالحياة، أطبقت عليَّ البلبلة».

قال صقر:

- «ذلك لأنك تعقد الأمور، لماذا لا تأخذها على علاتها».

- «إذا فعلت ذلك فلن أجني شيئًا...».

- «بلى ستجني الكثير.. وشاعرنا الخيام يقول:

تمــد بظهــر الغيــب واليــوم لي

وكــم يخيــب الظــن في المقبــل

ولــست بالغافــل حتــى أرى

جمــال دنيــاي ولا أجــتلي

وانتهزت شمس هذه الفرصة، وخلعت شالها الحريري ولفته حول وسطها، وأخذت تقلد غناء «أم كلثوم» وهي تشدو بهذه الأغنية الشهيرة، وفي نفس الوقت أخذت ترقص تحت الأشجار بحماسة بالغة، وصقر يصفق لها، وإريان يشهد الموقف في سكون عاصف، وخاصة بعد أن تجمع العاملون في المزرعة وأخذوا يشاركون في التصفيق والمرح، وما أن انتهت من رقصها حتى قال صقر:

- «دعونا نذهب إلى مسكني الخاص بالمزرعة لنشرب الشاي».

كان المسكن عبارة عن «فيلا» أنيقة بيضاء من دورين، مجهزة بأفخم الأثاث والرياش، وبها الستائر الملونة الرائعة، والتحف الجميلة واللوحات الفنية الجذابة، تتسابق بداخلها وحولها بعض القطط والكلاب المستوردة الأليفة، وإلى جوارها اصطبل لثلاثة من الجياد الأصيلة، وملعب صغير لكرة المضرب.

جلسوا يحتسون الشاي والنسكافيه، ويتجاذبون أطراف الأحاديث، لوحظ أن إريان قد انبسطت أساريره، وخف توتره، وعاد إلى طبيعته القديمة المرحة، لكنه شرد قليلًا يفكر، وقالت له شمس:

- «فيما تفكر يا عزيزي؟».

- «أقول لنفسي إن الدنيا يسيرها الأقوياء».

قال صقر متفلسفًا:

- «ومن هم الأقوياء يا إريان؟».

- «الذين يملكون المال والسلطة..».

- «قد يكون للفقراء قوة مهولة».

- «دعاوى لا يسندها الدليل..».

- «كان بيننا أقوام لا يملكون إلا القليل يا إريان لكن قولهم كان أمرًا ولا يرفض لهم الحكام رأيًا...».

- «قرأت شيئًا عن هذا في تاريخهم.. لكن الزمن تغير أمريكا هي الأقوى.. البنوك هي الأقوى.. وكذلك أجهزة المخابرات والحكام الديكتاتوريون.. وصقر هنا هو الأقوى..».

قهقه صقر في سعادة وهو يقول:

- «أنا واحد من مائة ألف مليونير هنا.. والناس ينادونني مجردًا دون ألقاب.. والخادم في بيتي يفعل ذلك أيضًا... لم يقل لي مرة واحدة «يا سيدي».. حتى حاكمنا يناديه الناس باسمه مجردًا.. ألا تصدق؟».

قال إريان:

- «كنت في بداية حياتي شيوعيًا.. ثم اكتشفت أن كل من حولي فقراء حاقدون ولم يحققوا شيئًا ورأيت أن فرصة السفر ستجلب لي المال الذي هو عنصر من عناصر القوة.. سافرت.. نسيت المبادئ.. هناك الكفاية التي تضمن للإنسان رزقه وكرامته وحريته.. لا حرية بغير المال..».

- «أوه يا فيلسوفي العزيز.. إنني أوافق على كل ما تقول..».

علّق صقر:

- «أما أنا فمتحفظ على ما يقوله إريان. حكومتنا اليوم تعطي كل مواطن بيتًا، وتفرشه له، وتضمن العلاج والتعليم بالمجان للجميع.. وأيام الفقر -قبل البترول- لم يتخل الناس عن حريتهم وكرامتهم.. يأكلون السمك والأرز والتمر.. ويرتدون الثياب البسيطة.

نحن دائمًا هنا أفضل من الشيوعية والرأسمالية معًا.

هبّت شمس واقفة، ونزعت شالها الحريري، ولفته حول وسطها، وهي تقول:

- «إني أكره الأحاديث الجادة».

ثم قصدت إلى المسجل، وأخذت تتفحص الأشرطة، واختارت منها واحد وشغلته، وأخذت ترقص على أنغام أغنية شبابية، وسرعان

ما حضر الفلاحون وأخذوا يشاركون في الاستمتاع بالطرب والمشاركة فيه.

مال إريان على أذن صقر هامسًا:

- «إني لا أفهمك».

- «ليس هذا وقته يا إريان.. دعنا نستمتع بالفن».

- «حان وقت الصلاة...».

- «ومن قال إني أتخلف عن الصلاة».

- «أنت طراز فريد من الرجال».

- «كثيرون مثلي في الدنيا».

- «أنت يا صقر تعطي ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

* * *

كانت السيارة المرسيدس الفاخرة التي يقودها صقر تنطلق بسرعة جنونية في طريق «الزيز» عائدة إلى «دبي» وكل السيارات المارة تتنافس في السرعة.

- «هدئ السرعة قليلًا».

قالتها شمس وهي تجلس إلى جواره، وإريان يجلس وحيدًا في المقعد الخلفي ينظر من خلف زجاج النافذة.

- «شمس:

- «انتهى زمن الجمال والحمير..».

- «ولماذا لا تشتري طائرة يا صقر؟».

- «ذلك لأن المرسيدس وجاهة وعز.. وليس عند السحاب أحد من المارة، ولا شرطة مرور».

- «ولماذا تحب أن يراك الناس».

- «إنها ترضي شيئًا داخل الإنسان».

وتدخل إريان بجفاف:

- «إن ذلك يرضي الكبرياء والغرور».

- «ولماذا لا تقول إنني أفعل ذلك ليرى الناس أثر نعمة الله عليَّ؟».

- «تتحدث كثيرًا عن الله، ولا تفعل إلا القليل».

- «ليكن، لكن تأكد أن الله ينظر إلى القلوب، ولا يحفل بشقشقة الألسنة...».

عبثت «شمس» بكاسيت السيارة، فانبعثت الألحان الراقصة، فأخذت تتمايل وتغني أغنيتها المفضلة المعدلة «الله يا ليل الله» وابتسم صقر قائلًا:

- «يجب أن تراعي حرمة الطريق، وإلا سحبت الشرطة مني رخصة القيادة».

***

7

لم يخف على شمس أحوال «إريان» المضطربة، كانت ترقبه عن كثب وتأسى من أجله، وتفكر مليًا في طريقة ترضيه بها، وتحقق له قدرًا من الاطمئنان، لقد رأت قبل ذلك عشرات من الشبان تيموا بها، ووقعوا فريسة حبها وتمنوا الوصول إلى قلبها بأسرع ما يمكن، لكنها كانت على النقيض منهم، تنظر إلى فنها وعملها، وتعرف جيدًا بلا مواربة أنها تريد النجاح والشهرة، وتحقيق أكبر قدر من الكسب المادي والمعنوي، ولم تفكر طوال هذه المرحلة قط في الزواج، فالزواج معناه الرجل المناسب، ومعناه الأطفال والمسؤوليات المنزلية والعائلية، وقد يكون سببًا في انقطاعها عن فنها، وبتر طموحاتها وآمالها التي حددتها بروية وعناية، مستبعدة العواطف الطائشة، وكانت تعرف المدى الذي يمكن أن تصل إليه في علاقتها مع الرجال، ولكنها لم تخط قط إلى منطقة الخطر، كانت تعرف جيدًا الفرق بين الراقصة المحترفة المخلصة لفنها، وبين بائعة الهوى

التي تهوى الرقص للإيقاع بزبائنها، وهي لم تقتل رغبات الأنثى في داخلها، ولكنها كبحتها إلى حين.. إلى الوقت الذي تراه مناسبًا، وربما كان الكثيرون لا يقتنعون بذلك ظنًا منهم أن الراقصة هي الراقصة، والمرأة هي المرأة في كل زمان ومكان، لكن لكل قاعدة عامة يوجد استثناءات، وقد تكون هذه الاستثناءات متعددة ومع ذلك فإن «شمس» تعيش على حافة الهوى، وتحاول ألا تقع مستخدمة حركاتها الرشيقة، وحسها المرهف، وقدرتها على التنبؤ والإفلات بطريقة تبدو طبيعية مقنعة، لا تثير الغضب، ولا تدعو إلى الشك ولا تنفر من حولها، وهم كثيرون في كل مكان.

لم تكن شمس راقصة تخرجت من الشارع العام واستهلكت نزواتها بين أذرع الرجال، في الأقبية الخافتة الضوء والسهرات الحمراء المجنونة، كانت ترف كالفراشة، وتنطلق كالغزال، وتتحرك تحت الأضواء، حدثتها نفسها كثيرًا بالحب، الحب بمعناه الكامل، لكنها كانت تسرع بالهرب.. بالانتقال من مرقص إلى آخر، ومن مدينة إلى مدينة ثانية، وأحيانًا من دولة إلى دولة، تصرفات تشبه المناورات العسكرية، وذلك موهبة لا يتقنها إلا القلة، ولا يقدر عليها إلا من تمتعت بأعصاب فولاذية، ولهذا فهي كبيرة الثقة بنفسها، ولا تتهيب المواقف

المخيفة. فلا بأس أن تذهب مع صقر إلى مزرعته، أو تتناول معه طعام العشاء، وتفرح بالهدايا التي يغدقها عليها، وتعتبرها تعبيرًا عن تقديره لفنها، وإعجابًا بشخصيتها «المحترمة»، كما أنها تبادل إريان الحديث، وتتبسط معه، وقد تسمح له ببعض كلمات تشي بالغزل، بل وبالرغبة في احتوائها، لكنها تكف عندما تجد أن الأمور قد يفلت زمامها، فتجد نفسها ملقاة في منطقة الخطر التي تحرص على عدم الاقتراب منها، عندما طلب منها «إريان» الزواج ألقت في طريقه بحاجز العقيدة، ثم تركته يحاول جاهدًا أن يبحث عن مخرج من وراء هذا الحاجز العتيد الذي يصعب اختراقه بالوسائل العادية المألوفة، وصقر أيضًا ألمح أيضًا هو الآخر إلى الزواج، لكنها قالت له إنها تشك في جدية ذلك الزواج، ذلك لأنه متزوج فعلًا وعنده أولاد، وضحكت قائلة:

- «زواج صحيح أم بعقد عرفي؟».

- «بل زواج صحيح..».

- «لكنكم تتزوجون كثيرًا وبسرعة، وتنفصلون أيضًا بسرعة، وأنا أيضًا أنشد الاستقرار البعيد المدى».

لم يستطع صقر أن يكذبها فيما تقول، وأردف:

- «الزواج أمره بيد الله، قد يطول وقد يقصر».

- «لكني أنشد الاستقرار، والنساء في بلدنا يحرصن على ذلك».

- «أضمن لك الاستقرار».

- «وما الدليل؟».

- «ضمانات جادة».

- «وما هي الضمانات التي تنوي تقديمها لي؟سيارة؟.. منزل؟ حساب محدود في البنك؟».

قال:

- «والأولاد».

ضحكت قائلة:

- «أعرف، رأيت رجلًا هنا متزوجًا من ثلاثة، وعنده عشرون ابنًا وبنتًا، وعرض عليّ الزواج والمال.. وعمره ستون عامًا».

- «وماذا قلت له؟».

- «قلت لا أريد أن أسجن نفسي في حصن الجواري مهما كان الثمن».

- «الشرع أباح له ذلك».

- «والشرع أعطاني حرية الرفض والقبول».

- «وهل تركك ومضى؟».

- «بل يحضر كل ليلة، ويجدد عرضه دائمًا، وقد يكون في نفس الوقت يفكر في زوجة رابعة أخرى...».

- «ألا تعتقدين أن حرية الزواج خير ألف مرة من حرية الفسوق؟».

نظرت إليه في دهاء وقالت:

- «وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة.. هل فهمت؟ واحدة».

ومن الغريب أن «شمس» لم تكن تأسى على عاشق معجب تركها ومضى بعد أن يأس من الحصول على رغباتها الشهوانية، فهم يجيئون ثم يذهبون، والذين يهجرون يأتي غيرهم، ولقد تعودت على ذلك، إذ سرعان ما تنسى الغائبين، وتجد في القادمين الجدد السلوى والعزاء، إنها كالبائعة التي يتوافد إلى متجرها عشرات الزبائن كل يوم، وفي نهاية اليوم لا تكاد تذكر اسم أو رسم أحد منهم إلا في حالة الضرورة القصوى، وهي ليست مجرد بائعة ثابتة في مكان بعينه، ولكنها بائعة متجولة لا يستقر بها مكان، ولا تنحصر في جمهور بعينه، خيالات المعجبين تزدحم في رأسها بالآلاف، ولا تكاد تميز منهم إلا نخبة قليلة

تميزوا بأشياء بعينها، وحتى هؤلاء قد تلتقي بهم مرة أخرى أو مرات، ثم يمضي كل لحال سبيله.

وهي تحلم بالتأكيد بفارس.. لكن هذا الفارس لم يأت بعد، وهي بتنتظره، قالت لأمها ذات مساء وهما بصدد الحديث عن الاستقرار والزواج: «قد يأتي يومًا ما.. وأنا أنتظر» قالت الأم: «ولماذا لا تبحثين عنه؟؟».

قالت شمس يومئذ:

- «سيأتي وحده».

- «كيف؟».

- «لا أعرف، ولكني متأكدة»؟.

وعندما تذكرت كلمات أمها ذات مساء، تساءلت بينها وبين نفسها:

- «أيمكن أن يكون إريان الإيطالي هو الفارس الذي كان على موعد مع القدر؟» إنه في الواقع وسيم مؤدب وموسيقي ناجح، ويبدو جادًا مخلصًا، ربما يعوزه المال الوفير، لكنه في تصورها من النوع الذي يحب الاستقرار، ويدين بالحب، والواضح أنه جاد في بحثه المتواصل للوصول إليها، وإلا لما فكر في اعتناق دينها كي يصبح الطريق مفتوحًا أمام الزواج منها،

والذي يفكر في تغيير دينه لذلك لابد وأن الحب يشكل لديه قيمة كبرى، لكن ألا يمكن أن يكون الإنسان الذي يترك دينه من أجل امرأة معرضًا لترك هذه المرأة أيضًا؟ إنه تساؤل مرير قد تبدو الإجابة عليه شديدة الصعوبة..

عقب أحد العروض الليلية: همست شمس في أذن إريان طالبة منه أن يتناول معها طعام العشاء، عندما هز رأسه موافقًا، كان قلبه يدق في فرح، وخاصة أن إريان سمعها تعتذر لصقر عن دعوته للعشاء لارتباطها بموعد سابق، إذن استطاعت شمس أخيرًا أن تفضله على صقر غريمه اللدود صاحب الإمكانات الواسعة الساحقة.

على العشاء قالت له:

«أأصب لك كأسًا؟».

قال دون أن يرفع عينيه إليها:

- «لم أعد أشرب الخمر».

- لماذا؟ إنها منعشة.. فلتأخذ قليلًا منها».

- «ما أسكر كثيره، فقليله حرام..».

ضحكت وهي تقول:

- «من قال لك ذلك؟».

- «شيخي...».

صفقت في سعادة:

- «هل أسلمت؟؟ لو فعلت فسأترك الخمر أنا الأخرى».

- «ليس بعد».

مدت يدها إلى ذقنه، ودفعتها إلى أعلى وهي تقول:

- «ارفع رأسك، وانظر إليَّ».

وكم كانت دهشتها حينما سمعته يقول:

- «ليس لي إلا النظرة الأولى».

- «أتجلس هكذا أمامي كالصنم الأعمى؟».

- «لكني أسمعك..».

- «أخاف أن تأتي وتقول: ليس لي إلا الكلمة الأولى».

قال دون أن يرفع رأسه:

- «عندما نتزوج ستكونين ملأ بصري، وسأطيل إليك النظر في الحلال وأنت يقظة وأنت نائمة.. وأنت تأكلين وتشربين وتتحدثين..».

قالت في ضيق:

- «ليس هذا عشاء بل عزاء...».

وجاءتها فكرة جهنمية:

- «إريان.. أنت لم تعتنق الإسلام بعد، فلماذا لا تتحرر قبل أن تسلم؟؟ اشرب.. وانظر.. واضحك.. قبل أن.. يأتي اليوم الذي تصوم فيه عن المحرمات...».

عجبت له حينما سمعته يقول:

- «لماذا لا تصومين في رمضان؟».

- وكيف تصوم الراقصة يا إريان؟».

- «الصيام فرض...».

- «لم أتعود على ذلك؟».

- «لماذا لا تتساءلين، إنك تأخذين كل أمور حياتك كما ورثتها في حياتك...».

- «وماذا أفعل غير ذلك؟ لم يكن يشغلني إلا الحصول على لقمة العيش؟».

- «هناك أمور أعظم من لقمة العيش...».

- «لا أعتقد».

- «لأنك محدودة العلم والمعرفة، لم أرك تقرأين كتابًا أو حتى صحيفة يومية...».

- «ذلك لأني من ذوات التخصص الدقيق».

- «وما هو تخصصك؟».

- «علم الرقص».

قال وهو ينظر إليها في حماسة:

- «الفن الأصيل يحتاج إلى مزيد من المعرفة والاطلاع».

صفقت بيدها في مرح وهي تضحك قائلة:

- «هذه هي النظرة الثانية، استطعت أن أستفزك حتى تنظر إليَّ..».

قال في جدية:

- «فيك شيء من مكر الشياطين».

وقفت ثم اقتربت منه وأخذت تمسح على رأسه ووجهه وتقول:

- «جعلنا الله من بركاتك يا مولانا».

نزع رأسه بعيدًا عنها، ثم أمسك يدها وقال في خشونة وهو يهددها بنظراته المتوعدة:

- «لا تفعلي ذلك مرة أخرى».

عادت تصفق:

- «إنك تنظر إلي للمرة الثالثة».

قال وهو لم يحول بصره عنها:

- «ليست نظرة اشتهاء، ولكنها نظرة تحدٍ وغضب».

- «حسنًا.. استمر.. وانظر إليَّ بغضب، فأنا لا أطيق العيون المغلقة، حتى ولو كنت تحلم بي..».

- «أنت تعلبين بالنار».

- «بل أنت..».

رفع يده، وهمَّ أن يهوى بها، لكن صقر قدم مسرعًا وكأنما انشقت عنه الأرض، وأمسك بيده قائلًا:

- «لا تفعل.. هل جننت؟ إن هذا لا يفعله رجل أوربي متحضر».

- «وما دخلك أنت؟».

- «احفظ أدبك، وإلا كنست بك الأرض».

وقفت شمس حاجزًا بينهما، ونقلت بصرها بينهما في عتاب:

- «أتريدان أن تفضحاني أمام الرواد في هذا الوقت من الليل؟».

لكن يبدو أنها كانت سعيدة.. سعيدة جدًا..

حينما ترى المرأة الرجال يتعاركون من أجلها فإنها تشعر بمتعة لا تضاهيها أية متعة في الوجود.

❊ ❊ ❊

8

تراءت لها الدنيا جميلة رائعة، فهي تقضي هذا الموسم في بلد جميل مريح، وتنال العائد المالي المجزي، وتحظى بإعجاب الجماهير، ولم تفرط قط في شرفها وكرامتها، على الرغم من أن الناس كانوا يتحدثون عن انتشار ظاهرة الخطف، والاعتداء على النساء، وشيوع سطوة الجنس، وكثيرًا ما يخطر على بالها أن تبقى في هذه البلاد أطول مدة ممكنة، لكن مسألة الزواج وخاصة في الآونة الأخيرة أخذت تلح عليها، وهي – على ما يبدو- مسألة ضرورية بالنسبة لفتاة في سنها قد شارفت الخامسة والعشرين من عمرها، وليس من المعقول أن تبقى هكذا بدون زواج، وهذا الموضوع لاتستطيع أن تنكر أنه يلح عليها من آن لآخر، وهي تعترف بينها وبين نفسها أن بعض الإغراءات القاتلة كانت تدفعها إلى الزلل، لكن الله حماها في أحرج الأوقات..

وحين تفكر شمس بعقلها تفكيرًا منطقيًا متزنًا ترى أن إريان في مقدمة الراغبين في الزواج منها حسب تصورها، ومن خلال دراستها لشخصيته، قد يكون أجنبيًا وهذه ناحية لا يمكن تجاهلها ولكنه إنسان رقيق مخلص، يحبها من كل قلبه، وتراه أفضل بكثير من ابن خالتها الذي يعمل موظفًا بجمرك مطار القاهرة الدولي، والذي ألح مرارًا وتكرارًا في طلب الزواج منها، لكنها كانت تدرك أنه ينظر إلى الزواج نظرة تجارية بحتة، لكن صقر شيء آخر، فهي أحيانًا تريده، وأحيانًا أخرى ترفضه بشدة، أمره دائمًا محير على الرغم من وضوح أفكاره، بل لعل هذا الوضوح هو سر شقائها، لأنه لا يترك لديها فرصة للتخمين أو للتحليل العميق لموقفه، وكثيرًا ما يبدو غريبًا أمامها، إنها تفضل إريان بالذات، وكثيرًا ما تعلو كفة عواطفها بالنسبة له، وهي متأثرة أشد التأثر لاستعداده لاعتناق دينها ليتزوجها، فماذا بعد ذلك، كانت كما يقولون: عين في الجنة وعين في النار، وراودته فكرة عابثة طفولية، آه لو استطاعت أن تجمع بين الغرماء الثلاثة في رجل واحد وتتزوجه، لكن الدنيا لا تسيرها نزوات الأطفال السذج، عليها أن تختار واحدًا وهذا هو العذاب بعينه، وإذا كان ولابد فإن رجلها المفضل سيكون إريان، تذكرت كلمات قديمة سمعتها ذات يوم في مكبر الصوت بالمسجد القريب من بيتها في حي «إمبابة».. كان أحد الوعاظ يقول:

- «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير من الدنيا وما فيها».

وهي لا تعرف من الدين إلا الشهادتين وبعض القشور، لكن الكلمات التي رددها الواعظ أعجبتها، وها هو إريان يوشك أن يهتدي على يديها، وإذا كان ذلك خير من الدنيا وما فيها، فلماذا لا تسعد وتفرح؟

إن الدنيا ستنتهي في يوم من الأيام بالنسبة لها مهما طال العمر، وستترك المال والبيت والأحباب، ولم يبق لها إلا العمل الطيب.. سيكون إريان هو الآخذ بيدها إلى الجنة بعد حياة الرقص والشرب والفسق التي تعيشها، وهي تكاد تكون مرغمة عليها، في عالم استشرى فساده، وتشوهت قيمه، حينما تخرجت من المدرسة المتوسطة بعد موت أبيها بعام لم تجد سوى عمل بسيط، لا يكفي لسداد إيجار المسكن وطعام الفطور، كان عليها أن تفكر وتبحث عن مخرج، وفتح لها أحد الملاهي أبوابه، كانت تحب الفن، وتريد أن تكون ممثلة، وجدت الطريق صعبًا أمامها، فركبت الموجة التي قذفت بها إلى عالم الرقص، ليكن «أكل عيش» ومن الضروري أن تكون استجابتها سريعة، وتوافق على العرض قبل أن تضيع الفرصة، وربما إلى الأبد، وجدت من يعلمها الحركات والإيقاع، وتعلمت بسرعة، كانت تغطي أخطاءها الفنية بتصرفات سوقية تتناسب مع جمهور الصالات

والحانات، والرواد السكاري يصفقون ويبدون إعجابهم برغم ذلك، فن مع فهلوة أفضل من فن خالص راق، لقد فسدت الأذواق، انطلقت الرغائب الحيوانية في هذا الزمن الردئ.. هي تتمايل وترقص وتغني الأغنيات الرخيصة، وتتعمد الحركات المثيرة.. وبذلك تحقق لها النجاح.. لم تكن أمها تتدخل في أمورها، ولم تطلب منها سوى أن تحافظ على شرفها، وتحرص على الحصول على زوج مناسب يسترها، ويكفيها مؤونة الحاجة والسؤال.

قالت لإريان في لهجة ود صادقة:

- «إريان الحبيب.. أنا لك وحدك».

هتف في حيرة:

- «هل أصدق ما أسمع أم ما أرى؟».

- «تعرف أني صادقة، وليست هناك قوة تميل بي بعيدًا عنك».

- «والمال يا شمس».

- «يروح ويجيء..».

- «ووطنك.. وأهلك.. وعشاقك»..

- «أنت وطني وأهلي وحبيبي».

- «أنت العذاب بعينه يا شمس».

- «الحب لا يحلو بغير عذاب».

- «وطموحك قاتل».

- «الحب أقوى يا إريان».

- «إذن فما الذي جعلك تحبينني».

- «يصعب علي أن أشرح لك..».

- «كل ظاهرة في هذا العالم لها أسباب».

- «إلا الحب يا أبله..».

- «لكنك تحسبين كل شيء».

- «ليس في كل حال...».

طوقته بذراعيها، وهمت بتقبيله، فامتنع:

- «هذا مخالف لأوامر دينك».

- «ذلك أمر يخصني..».

- «لكنه يهمني، وله معني خطير...».

اعتدلت في جلستها، بعد أن تراخت ذراعاها إلى جوارها، وقالت:

- «لن يرانا أحد».

- «لكن الله يرانا يا شمس، إنك تعطينني شيئًا لا أستحقه».

- «حبي!!».

- «ليس لي فيك حق إلا بعد الزواج».

- «نحن في فترة الخطوبة والاختبار..».

- «أريدك ألا تكوني بعيدة كل البعد عن دينك».

- «أنت لم تعرفه بعد...».

- «أعرف القليل وأحاول تطبيقه».

- يا إلهي!! ما الذي جرى لك؟؟».

انسلخ عنها، ومضى شاردًا، وتركها هائمة في حيرتها، عاد إلى غرفته وحيدًا يفكر، تناول كتابًا وأخذ يقرأ فيه، وفجأة تذكر الرسالة التي تسلمها اليوم من البريد، إنها من أبيه، قصها وأخذ يقرأ فيها:

«ولدي إريان..».

«لقد بلغني عنك ما أحزنني، إذ كيف تجرؤ على التخلي عن ملكوت الله الذي رعاك، وتفكر في اعتناق دين آخر غير دين آبائك وأجدادك؟ لقد أخبرني بعض أصدقائك عما تعتزمه من

«إثم كبير»، وجنوح إلى الشيطان، فاعلم أنك لو فعلت فعلت ذلك خسرت دينك ودنياك، وأغضبت ربك وأباك وأمك، وأصبحت مطرودًا من رحمة الرب الذي يفتح بابه للعائدين، ويعفو عن الخاطئين.. إن أسرتنا كما تعلم يا إريان أسرة عريقة في اللاهوت والكهنوت، وقد شاركنا على مدار العقود الزمنية في توجيه البشر بكل أنحاء أوروبا وغيرها لدرجة أن «بابا الفاتيكان» يعرفنا شخصيًّا، فماذا أقول للبابا؟ ماذا أقول للناس؟ ولزملائي خاصة في الكنيسة؟ أأقول لهم إن ولدي الوحيد إريان قد وقع في إسار «الهرطقة»، ومشى خلف الشيطان اللعين؟ إن كنت تريد مالًا يا بني فإني قادر على أن أمدك بما تشاء منه.. وإن أردت صوفيا التي غدرت بك، فلسوف أرسلها إليك على الفور، أو تأتي أنت لتتزوجها، لقد أبدت استعدادًا تامًّا لذلك، وهي على وشك أن تأتي لزيارتك في وقت قريب.. وإن أردت المجد، فإن أصدقائي هنا وعدوا بإلحاقك بأكبر فرقة موسيقية في روما.

أي ولدي إريان.. إني على استعداد أن أحقق لك أغلى رغبة تحلم بها إذا أردت.. وأنا أعدك.. وأقسم لك.. فمن أجل المسيح.. من أجل أبيك وتاريخه.. من أجل شعبك عد إلى طريقك..

إنني أبكي من أجلك ليل نهار، وأدعو لك من كل قلبي وأقضي الساعات في الكنيسة متعبدًا خاشعًا تاركًا العنان للدموع.. فهل تقبل دموعي وشفاعتي:

انتظر منك رسالة تنزل بردًا وسلامًا على قلبي المشتعل بالألم والعذاب..

والدك كارلو

استلقى على سريره، وأخذ يفكر في كلمات أبيه، إنه يحبه ويتعذب لعذابه، ويحزن من أجل هذا العناء الرهيب الذي ألم بحياة أبيه وأسرته.

ومع ذلك، فقد قفز إريان من فوق سريره، وأحضر القلم والورقة..

«والدي الحبيب..

«أنا لا أريد مالًا ولا امرأة ولا مجدًا.. ولكني أريد الحقيقة، إنها أغلى عندي من كل ما في الدنيا.. ولن أندفع إلى هذه الحقيقة بهوى شيطاني، أو دافع دنيوي رخيص.. لأن الحقيقة الصحيحة لا تنال إلا بالصدق والإيمان والعقل والبراءة..».

«تذكرني هنا يا أبي قصة يرويها القوم هنا عن نبيهم محمد ﷺ أن الكفار جاؤوا لعمه وقالوا له: لو أراد محمد ملكًا ملكناه

علينا، ولو أراد مالًا جمعنا له ما يشاء من المال، ولو كان مريضًا مسحورًا لأحضرنا له أمهر الأطباء.. فقط نريده أن يتخلى عن دعوته.. أتدري يا أبي ماذا قال محمد؟؟ قال: «والله يا عمي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر، لما تركته حتى يظهره الله.. أو أهلك دونه..».

«ذلك يا ابتي أنني لست منقلبًا من ديني، أو طامعًا في عرض من أمور الدنيا، ولا حالمًا بجاه.. ولقد وهبني الله العزم والإرادة والعقل لكي أبحث حتى أصل إلى الحقيقة.. ومعرفة الحقيقة أو أطراف منها هي جوهر الحياة.. ولا معني للحياة بدون ذلك...».

«فلماذا يا أبتي نخاف من الحقيقة؟؟».

«أعرف أن الناس ينظرون من زوايا عدة، وقد يختلف معنى الحقيقة من إنسان لآخر، ذلك بسبب ترسبات الهوى والمسلمات القديمة في العقول والقلوب.. ولكني تجردت من كل شيء وبدأت رحلة الاستكشاف دون عقد أو أفكار مسبقة.. ولم أصل بعد إلى الهدف.. الله وحده يعلم متى وكيف أصل...».

«لا تحزن يا أبتي ولا تبكي فإن حبي لك خالد أبدي.. ذلك لأنك أبي.. وكذلك الأمر بالنسبة لأمي.. لا تحزن.. فكل إنسان

يلقى الله فردًا ليس معه أحد.. ولا يشفع أب لبنيه، ولا ابن لأمه أو أبيه..».

«لا تحزن يا أبتي.. لأنك لو كنت معي، لوجدتني أتصرف بطريقة طبيعية في الدراسة والبحث، كما يفعل زملائي وأقراني في روما.. بل وفي كل بلاد أوروبا».

«قبلاتي على يديك.. ورأسك.. ووجهك الباسم الحنون... مع أطيب تحياتي وتمنياتي الصادقة».

ابنك إريان

ونام إريان كما لم ينم من قبل، اختلطت في نومه الوجوه والصور والأحلام، كل ما يتذكره، أنه كان ينقل خطاه بصعوبة، ويحاول أن يجري فلا يستطيع، ويحاول أن يتكلم فتأبى الكلمات الخروج من بين شفتيه، رأى في منامه شمس وهي ترقص، ورأى صقر بنظراته الحادة العميقة، ورأى المرشد «علي» وهو يجوب به معالم المدينة، ورأى الشيخ عيد اليعقوبي متصدرًا مجلسه يقرأ القرآن بصوت حنون، ويشرح آياته، ورأى أباه وأمه.. وصوفيا أيضًا.. والملعون «بينيتو» الذي وشى بأمره إلى أبيه.. كانت أحلامه مزدحمة بكل ما يؤرقه في الحياة..

دق جرس الهاتف، رفع السماعة، جاءه صوتها:

- «أما زلت نائمًا يا إريان!».

- «لم أشعر بنفسي إلا في الصباح».

- «يقولون في بلادنا: لا ينام الليل إلا أبو قلب خالي».

- «ما حدث لي هو العكس تمامًا».

- «حسنًا اغتسل واحضر لتتناول طعام الإفطار معًا..».

قال إريان وهو يتثائب:

- «ويقولون عندكم أيضًا: ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما».

ضحكت من أعماقها وقالت متهكمة:

- «وهل أنت رجل؟».

وتبادلا الضحك لكنه قال:

- «وماذا أكون؟».

لم تجب عن سؤاله، ولكنها قالت:

- «ولا أنا امرأة.. أنا بستين رجلًا...».

- «على أي حال..».

قاطعته قائلةً:

- «استحضر.. هذا أمر..».

***

9

أصبح وضع إريان شائكًا بين أعضاء الفرقة الموسيقية بالفندق، ذلك لأنهم –وهم جميعًا مسيحيون– يزوَرُّون عنه، ويعاملونه بسخف على الرغم من أنه لم يشهر إسلامه بعد، لكنهم كانوا يتوقعون منه أن يفعل يومًا ما، وثقلت عليه الحياة في الفرقة.وفي الفندق، لولا عطف شمس عليه، ومساندتها له، وقيام صقر وعلي وغيرهما من المتعاطفين معه بتعويضه عن تلك الجفوة التي يعاني منها بين مواطنيه الإيطاليين، وكان أشد الساخطين عليه زميله القديم بينيتو الذي نظر إليه في تهجم وحقد وقال:

– «لابد أنك أصبت بلوثة».

– «اختر كلماتك جيدًا يا بنيتو، إني بكامل قواي العقلية؟».

رد عليه بغضب:

– «كيف؟ أتريد أن تترك دين الحضارة والتميز وتركن إلى دين أمة متخلفة، تستورد كل شيء حتى الفنون والراقصات ووسائل النقل ولقمة الخبز؟».

- «أنا لا أنظر إلى هذه الجوانب المادية يا بينيتو.. قد يملك الشرير مال الدنيا وعلومها، وقد يكون الأخيار فقراء بلا سلطة...».

- «تلك فلسفة المقهورين والعاجزين والحمقى..».

- «كان المسيح عليه السلام لا يملك من حطام الدنيا شيئًا يذكر».

هتف بنيتو في حدة:

- «يكفيه أنه ابن الله مالك الأرض والسماء والدنيا والآخرة...».

- «هذا استدلال فاسد، فليس لله زوجة أو أبناء.. كلنا عبيده.. حتى المسيح هو عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل».

- «إنك تحطم كل المقدسات يا إريان، وهذا خطأ لا يمكن السكوت عليه، إنني أحذرك..».

- «أتهددني؟ لم أعهدك متدينًا قط».

- «لم تزل على البر يا إريان، فاحذر أن ترمي نفسك وسط الأمواج الصاخبة وإلا غرقت».

- «لم يغرق نوح عليه السلام، وإنما غرق الضالون من قومه».

تنهَّد بنيتو في ضيق وقال:

- «هناك أخطاء في الحياة لا يمكن تجاهلها، وهناك عقوبات مدمِّرة لا يمكن استدراكها مهما كان الأمر».

- «إنك تتحدث بلغة غريبة..».

- «ذلك لأني أحبك، ولا أريد أن تحل بك الكارثة..».

- «إنني أبحث عن الحق، فهل في ذلك جريمة..».

- «البحث ليس جريمة، ولكن الجريمة في اتخاذ موقف خاطئ متسرع».

- «أأنت الذي يقول ذلك يا بينيتو؟؟ إنني أعرفك جيدًا وأعرف ماضيك.. لقد ارتكبت كل الموبقات، واليوم تلبس ثياب المبشرين والوعاظ».

- «يستطيع المرء أن يفعل كل شيء إلا أن يفارق دينه، والمسيح صلبوه، واستطاع أن يمحو بدمه وتضحيته ذنوب المؤمنين..».

ابتسم إريان في مرارة وقال:

- «هكذا ببساطة؟ إذن سوف يتساوى الصالحون والطالحون في النهاية متى سكبوا دموع الاعتراف..».

- «وماذا في ذلك؟».

- «فيه الكثير..».

- «حسنًا، لقد أخبرت أباك كل شيء، ولن تفلت منه، وإن أفلت، فلن تستطيع النجاة مني».

- «ماذا ستفعل؟».

- «سألقنك درسًا في الأخلاق لن تحتاج لغيره بعد ذلك».

انصرف إريان عنه غاضبًا، فلم يكن لديه الوقت لمزيد من المناقشات، كان عليه أن يذهب إلى الشيخ «عيد الحسيني» ليسأل ويتلقى الإجابة، واصطحبه على المرشد السياحي، وخرجا معًا من الفندق، كانت الشمس تسطع دافئة رائعة، وحشود السيارات تنساب في سهولة ويسر، ورجال المرور يراقبون حركة السير بعيون الصقور المفتوحة التي لا تغفل، وليس في الشوارع متسكعون متبطلون يشاكسن النساء، أو يعبثن في النواحي والميادين، هذه أمور لا تباح في هذا المجتمع الذي تختلط فيه أجناس البشر في سمفونية إنسانية بليغة.

كان الشيخ يجلس كعادته، والمصحف مفتوح أمامه، يقرأ ويفسر ويشرح، ويجيب على أسئلة المستمعين ذوي الألبسة والألوان والألسن المختلفة، وإلى جواره يجلس مترجمه الخاص

بالإنجليزية، وآخر للغات الشرقية، وما أن انتهى الدرس وانفضَّ الناس، حتى صاح بصوت وقور محبوب:

- «تعال إلى جواري هنا يا إريان».

قدم إريان في خطى وئيدة، وهو يستشعر الراحة والأمان، وألقى على الشيخ السلام بلغة عربية مفككة، ثم صافحه وجلس إلى جواره في أدب، قال الشيخ:

-«أهلًا بك في مجلسنا دائمًا، كلما قصدتنا أفسحنا لك مكانًا بيننا، وإن هجرتنا عذرناك، وبقي الود قائمًا في قلوبنا..».

هزَّ إريان رأسه والدموع تترقرق في عينيه:

- «لقد تعبت يا سيدي.. تعبت جدًا..».

ابتسم الشيخ وقال:

- «ذلك بداية الراحة..».

- «اتهموني بالجنون».

- «فعلوا ذلك مع الأنبياء».

- «ورموني بالتخلف والجهل..».

- «لن ينقص ذلك من قدرك شيئًا عند الله.. وعندنا».

- «وقالوا إن دينكم دين الخرافة والفساد والرجعية..».

- «أجل.. قالوا ذلك لنوح وعيسى وموسى ومحمد وغيرهم..».

- «ولماذا لا يعترفون بالحق؟».

- «لأنهم يجهلونه، والناس أعداء ما جهلوا».

- «وأبي..».

- «ماذا به هو الآخر؟».

- «ناقم.. حزين.. يبكي».

- «يقول كتاب الله عن الأب والأم: وإن جاهداك على أن تشرك بالله شيئًا، فلا تطعهما.. وصاحبهما في الدنيا معروفًا، واتبع سبيل من أناب إليَّ».

- «الهداية عندهم عقوق وعصيان».

- «والهداية يا ولدي نعمة كبرى، لا ينزلها الله إلا على المخلصين».

تنهَّد إريان، ثم جفف دموعه وقال:

- «حدثني عن الله.. وعن محمد..».

- «الله الخالق المبدع هو الحقيقة الكبرى.. ليس كمثله شيء.. إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.. ومحمد خاتم أنبيائه

ورسوله بالكتاب إلى العباد، أدى الأمانة وبلغ الرسالة.. لم يزعم أنه إله أو ابن إله.. بل قال: إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليَّ..».

تفكَّر إريان قليلًا ثم قال:

- «بشر مثلنا؟».

- «أجل.. لكن.. يوحى إلي».

صرخ بأعلى صوته:

- «أريد أن أراه.. أريد أن أراه».

ربت الشيخ عيد على كتفه في حنان وقال:

- «تستطيع أن تراه».

- «كيف؟؟».

- «في سيرته.. في أحاديثه.. في الكتاب الذي أنزله الله عليه ولم يترك صغيرة ولا كبيرة.. وتستطيع أن تراه بروحك.. بقلبك.. ليست الأمور المحسوسة هي كل شيء في هذه الدنيا..».

ودمعت عينا الشيخ عيد اليعقوبي وأخذ يقول:

- «جلس محمد ذات يوم بين أصحابه وقال: ما أشد شوقي إلى أصحابي!! قالوا: أو لسنا أصحابك يا رسول الله؟؟ قال:

بلى.. ولكن أصحابي أقوام يأتون بعدي ويؤمنون بي دون أن يروني.. ما أشد شوقي إلى أصحابي..».

مسح الشيخ دموعه وقال:

- «كلنا أصحابه يا إريان، وعندما تؤمن به ستكون بالتأكيد صاحبه..».

أخذ إريان يهز رأسه في انفعال صاخب:

- «يحرقني الشوق لرؤياه..».

أغمض إريان عينيه واستطرد:

- «ها هو إني أراه.. تمامًا كما رأيته في منامي.. رأيته بالأمس في منامي.. ولقنني الشهادتين ورددتها خلفه.. رددتها ثلاث مرات..».

ثم هبَّ إريان واقفًا، ثم صاح بلغته المتكسرة، باللهجة العربية، ذات اللكنة الأجنبية:

- «أشهد أن لا إله الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله».

ضجَّ الحضور بالتهليل والتكبير، وتزاحموا حوله يحيبونه ويقبلونه ويباركون له، وقد احمر وجهه، وتندى جبينه بالعرق.

- «وماذا اخترت من الأسماء».

سأله الشيخ عيد، وقال إريان:

- «عبد الله كارلو».

- «حسنًا.. اذهب الآن واغتسل، والبس ملابس جديدة، وتخلى عن كل ما معك من المال لأهلك، لتبدأ معنا من جديد..».

قال إريان وهو يجفف عرقه:

- «وكيف أبدأ».

- «تترك الفندق والفرقة، وتعيش معنا حتى نبحث لك عن عمل جديد شريف، ليس فيه شبهة».

هزَّ أريان رأسه:

- «وأبدأ من جديد؟».

- «نعم.. إن الإسلام يجُب كل ما قبله.. فأنت ولدت اليوم، وسوف نأخذك إلى المحكمة الشرعية، وسيحضر أيضًا أحد القساوسة من أبناء مذهبك، ويناقشك القاضي عن سبب إسلامك، وهل هو عن اقتناع تام أم جاء بالإكراه، وسيحاول رجل الدين المسيحي أن يناقشك في الأمر كي يردك إلى دينك.. ولك الخيار..».



مشى في الشارع متأبطًا ذراع المرشد علي، كان يملأ رئيته بالهواء النقي المنعش، ذهبت عنه الوساوس القديمة، والأوهام المعششة، والمخاوف الموروثة، والشكوك القاتلة، أخذ ينظر إلى السماء.. كانت ضاحكة مضيئة بالنور الباهر، هانئة بالزرقة الصافية، خالية من السحب، ونظر إلى الناس في الطرقات وفي السيارات، تمنى أن يعانقهم جميعًا في حب ولهفة، وكأنه يراهم لأول مرة، ورأى المآذن والقباب تتألق شامخة جليلة فشعر أن هامته تطول.. وتطول.. وأنه يتمنى أن يمد ذراعيه ليحتضنها ويقبلها، ويريح صدره عليها.. ورأى طيور النورس قرب الشاطئ وهي تنطلق نحو البحر في حرية وسعادة.. تمنى أن يطير مثلها.. الدنيا كلها تضحك له، وتباركه، وتهلل وتكبر كما كان إخوانه في مجلس الشيخ يفعلون..

مال على صديقه المرشد علي وقال:

- «إني أشعر بالسعادة.. أتعلم أن للإيمان حلاوة؟؟».

قال علي في ثقة:

- «أنت أفضل منا جميعًا».

- «كيف؟؟».

- «صفحات حياتك الجديدة بيضاء، وستبدأ عن وعي وصدق وإيمان.. تستطيع أن تملأها بالحب والخير والعمل الصالح».

- «لقد بلغت شاطئ الأمان».

قال له:

- «هل ستعود إلى وطنك؟».

- «وطني هنا.. بل كل العالم وطني.. سأسلم أمري لله وأمضي سعيدًا على أية حال.. ذلك لأني قد هداني الله للحقيقة.. والحمد لله على نعمة الإيمان».

***

10

لم يكن أحد يتوقع مجئ «صوفيا» بهذه السرعة، ويبدو أن «كارلو» والد «إريان» هو الذي شجعها على ذلك، وهي لا اعتراض لها على رحلة لن تكلفها شيئًا، فقد سهل لها الحصول على تأشيرة الدخول ودفع ثمن الرحلة، وتجهيز كل ما يحتاجه السفر، وكان كارلو يقصد من وراء ذلك التأثير على ابنه بكل الوسائل حتى يستجيب للضغوط الأسرية والدينية والعاطفية، ويبتعد عن الدخول في الإسلام، إذ أن المسألة لم تعد مسألة دينية بحتة، ولكنها في نظر الأب تتعلق أيضًا بكرامته وسمعته كرجل دين له جولات ناجحة في أنحاء العالم للتبشير، إذ ذهب إلى الهند وإفريقيا والشرق الأقصى، وتنصَّر على يديه الكثيرون. ولقد كانت صوفيا غريبة الشأن فهي برغم تسيبها وانطلاقها وحياتها شبه الماجنة، إلا أنها شعرت بأن مهمتها لدى إريان مهمة مقدسة، ويجب أن تبذل فيها أقصى ما تستطيع من جهد إرضاء للرب حسب قولها، إنها حقًا ليست متدينة، لكنها مع ذلك

متعصبة لدينها، وهناك شيء آخر مهم آثار حفيظتها، وأشعل غيظها ذلك أن إريان يحب راقصة شرقية اسمها «شمس»، وأن هذه الراقصة -ويا للعجب- هي التي زوّقت له الانتقال لدينها، كي يحظى بحبها، ولقد كانت صوفيا نادمة أشد الندم لعدم تجاوبها التام مع عواطف إريان نحوها، واستهتارها بمشاعره، وتنقلها من حبيب إلى آخر، وفتور علاقتها به عند سفره، وهذه كلها باعث على الندم لديها، وكانت تتمنى ألا يحدث ذلك، ويترتب عليه تمرّد إريان على دينه ووطنه وأصدقائه..

عندما حطت بها الطائرة في مطار «دبي» سألت عنه «بينيتو» الذي قدم لاستقبالها، فأخبرها أنه اختفى منذ ثلاثة أيام، وأنهم أبلغوا الشرطة، لكن الشرطة ردَّت عليهم بقولها: أن إريان في مكان آمن، يجلس فيه بمحض إرادته، وأنه لا خوف عليه، وتضاربت الأقوال، وكثرت التخمينات.

قالت صوفيا:

- «لقد أصاب إريان شر بعدي».

أما شمس فقد كانت على النقيض من ذلك إذ توقعت أن يكون اختفاء إريان بداية لتحقيق الحلم في الزواج، ومن طبيعتها أنها تتحاشى الجانب الأسود من التوقعات، وتميل إلى التفاؤل،

وتعتقد أن مشاكل الحياة لابد وأن تزول في يوم من الأيام فلماذا القلق والخوف؟

قدم بينيتو ومعه صوفيا إلى حيث تجلس شمس، وهي جالسة في الاستقبال بالفندق، وقام بتقديم كل منهما للآخر.

قال بينيتو لشمس:

- «آنسة صوفيا خطيبة إريان في روما».

ابتسمت شمس وقالت وهي تتذكر الفيلم الشهير الذي مثلته صوفيا لورين وهو من تأليف الكاتب الإيطالي الشهير البرتومورافيا.

- «امرأة من روما؟».

بادلتها صوفيا بابتسامة باردة وجلست دون دعوة وهي تقول:

- «يقول لك السيد بينيتو أنني خطيبة إريان».

هزّت شمس كتفيها في استخفاف وقالت:

- «لكن إريان ليست له خطيبة سواي».

- «أتصدقين هذه العبث؟».

- «ليس عبثًا، ولكنه واقع مؤكد».

- «أنا أعرف إريان جيدًا يا آنستي.. لقد عاشرته سنوات، كانت من أحلى أيام العمر».

- «وأنا عاشرته بضعة أشهر، لكنها العمر كله».

هتفت صوفيا في غضب:

- «أين هو؟».

- «في حماي».

- «أنت تكذبين على نفسك أيتها الراقصة».

قالت شمس متهكمة:

- «الرجال في الشرق يلهثون خلف النساء طمعًا في رضائهم لكن النساء في إيطاليا يطاردن الرجل.. هذا هو الفرق».

ردَّت صوفيا ببرود:

- «أنت وقحة يا آنستي».

قالت شمس على الفور:

- «على الرغم من أنك في بلد متحضر كما يقولون، لكنك تفتقرين إلى الكثير من الذوق والتهذيب».

- «لو لم أكن في هذا المكان المحترم للقنتك درسًا في الأدب».

- «وأنا -لو لم تكوني ضيفة في بلادنا العربية- لضربتك علقة ساخنة لا تنسينها طول حياتك...».

هبَّت صوفيا واقفة في غضب، بينما أسرع بينيتو بالفصل بينهما مخافة أن يتطور الموقف، وصاحت صوفيا:

- «أين رجلي؟».

قالت شمس بمنتهى الثقة:

- «إنه هنا في قلبي.. وهو رجلي أنا.. تذكري أن الرجال لا يفتحون قلوبهم مرة أخرى للمرأة الغادرة مهما كان حبهم لها..».

- «أنت مغرورة».

- «أنا واثقة مما أقول».

ثم استأذنت في الانصراف وهي تقول:

- «أرجو أن تقبلي دعوتي لحفل الليلة الذي سأرقص فيه وهناك سترين كيف تتساقط القلوب تحت قدمي، لكن قلبًا واحدًا هو الذي اخترته..».

- «أنت واهمة، إنني أعرف ماذا تقصدين».

وانصرفت شمس، بينما جلست صوفيا مع بينيتو كالنمرة الجريحة، تعبث في أناملها بعصبية، وتتحرك فوق المقعد حركات

بغير هدف، وتتلفت هنا وهناك في غيظ، وبللت الدموع عينيها، لكنها تأبى أن تسيل، وهي تكز على أسنانها مهتاجة، لو كان في روما لأطلقت عليها الرصاص وقضيت عليها، لكنها في بلد غريب، وقد جاءت إلى هنا لمهمة محددة هي العودة بإريان، واستعادة حبه وثقته، ومنعه من اعتناق دين غير دينه، ولهذا فإن عليها أن تكظم غيظها وتحتال.. نعم تحتال.. حتى تحقق أهدافها بأي ثمن، حتى ولو باعت نفسها للشيطان، وأدرك بينيتو ما تعانيه صوفيا من كرب، فحاول أن يخفف عنها، ويصب لها الكأس بعد الكأس حتى هدأت أعصابها قليلًا، وتمتم وهو يسدد إليها نظرات جادة:

- «يجب أن نتصرف بحكمة».

- «هذا الملعون إريان أوقعنا في ورطة، هل تظن أنني أحب مثل هذا الأبلة؟ إنه تافه حقير وإلا لما فعل ما فعل، أنا لا أفكر فيه إلا بقدر المسؤولية التي تحملتها وهي إعادته إلى روما بدينه، وأنا لا أقبل أن تهزمني امرأة غجرية ساقطة مثل هذه التي تدعي شمس.

ما الذي أعجبه فيها، رقصاتها التي يسكنها الشيطان؟؟».

قال بينيتو في إصرار:

- «لن ندعه يفلت مهما كانت التضحية».

قالت صوفيا في حماسة:

- «إذا فعلت ذلك يا بينيتو فسأكون لك وحدك أعدك بذلك..».

أشرق وجهه بالفرح وقال:

- «أحقًّا ما تقولين؟».

- «بل أنا لك منذ الآن.. أعاهدك».

- «لكنه لو شعر بذلك لتعقدت الأمور يا عزيزتي صوفيا».

- «لن ندعه يعرف».

- «كيف؟؟».

- «أنا له في الظاهر، ولك أنت وحدك في حقيقة الأمر».

قال بينيتو في حيرة:

- «يؤرقني هذا التردد».

- «إنها سياسة..».

- «وأنا لا أثق في السياسة ولا في الساسة».

- «لكني عاهدتك.. تعلم أن الغرب قد قهر الشرق وهزمه، ولن تقوم له قائمة أبدًا.. واليوم لن نسمح لشرقية كي تفتك

بغربية.. أنا وشمس نمثل صراع الغرب والشرق، ونتيجة المعركة معروفة...».

قال بينيتو ساهمًا:

- «هذه معركة من نوع مختلف».

- «ماذا تقصد؟».

- «ليس فيها طائرات ولا دبابات ولا تكنولوجيا.. إنها عواطف وأفكار..».

- «قوتنا تسحق كل شيء.. أي شيء».

حانت من بنيتو التفاتة إلى مدخل الفندق ففوجئ بإريان داخلًا ومعه المرشد السياحي علي، هتف بنيتو وهو يقف في توتر:

- «لقد جاء إريان».

وقفت صوفيا هي الأخرى ونظرت باهتمام:

- «يا إلهي.. إنه يلبث جلبابًا أبيض مثل المواطنين هنا.. أنا لا أكاد أصدق عيني».

ومع ذلك فقد هرولت صوفيا نحو في لهفة، وعندما اقتربت منه هتفت في شوق:

- «إريان.. أيها الحبيب».

نظر إليها، وفرك عينيه وهو لا يكاد يصدق، قال:

- «أأنت صوفيا؟ ما الذي أتى بك إلى هنا.. لا أكاد أصدق ما أراه».

- «ألا تقبلني وتحتضنني يا إريان».

قال وقد وقف جامدًا كالتمثال:

- «ليس لي الحق في ذلك».

- «بل لك كل الحق.. ألست حبيبتك التي تعشقها».

قال وهو يسدد نظراته إلى الأرض:

- «أشياء كثيرة في الحياة تموت.. وأشياء أخرى تولد.. كل يوم يحدث ذلك.. وإريان الأمس غير إريان اليوم.. لم يعد اسمي إريان.. أنا الآن أحمل اسم عبد الله كارلو».

قالت وقد شحب وجهها:

- «عبدالله كارلو؟؟ ما معنى ذلك؟».

- «معناه أنني اعتنقت الإسلام...».

صرخت في جنون:

- «من أجل تلك المشؤومة شمس؟».

- «بل من أجل الحقيقة».

ثم هام بنظراته وهو يقول:

- «عندما تصعدين إلى أرض النور القدسي تتجلى لك الحقائق دون زيف، ويشرق الصدق دون رياء.. وتسمعين صوت الحق يتردد في الآفاق صداه وتسمعينه كما سمعه أنبياء الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه:14].

ومضى عبد الله في طريقه لا يلوي على شيء وهو كالحالم، هجمت عليه صوفيا، وطوقته بذراعيها، وحاولت تقبيله، لكنه دفعها بقوة، لكن برقة، وبقى كالطود الشامخ برغم جسده النحيل وقال:

- «فماذا بعد الحق إلا الضلال».

شعرت صوفيا بالهزيمة والإحباط وتمتمت في غضب:

- «ألم أقل يا بنيتو أن إريان قد أصابه شر بعدي؟».

- «تعلمين أنه كان دائمًا رومانسيًا حالمًا..».

- «لكنه يسقط في هوّة ليس لها قرار..».

- «لابد وأن يفيق يومًا من غيبوبته...».

- «قد يطول الانتظار».

- «وأنا لا أستطيع الانتظار طويلًا».

- «ماذا تعني؟».

- «أعرف كيف أعيده إلى الصواب».

- «ولماذا لا تفعل؟».

- «الأمر يحتاج إلى تدبير وتخطيط.. ربما نتوسل بأسلوب الشيطان لتحقيق الغايات النبيلة...».

- «الشيطان يا بنيتو؟؟».

- «نعم.. الشيطان، فالغاية تبرر الوسيلة كما قال أستاذنا الفيلسوف الكبير ميكافيللي.. إن سياسة العالم اليوم تسجد في محرابه الذي يسكنه الشيطان».

- «كلماتك مخيفة يا بنيتو..».

قهقه بينيتو في جنون وقال:

- «ستكونين لي الليلة».

- «ولماذا الليلة بالذات يا بنيتو؟».

- «لكن نوثق العهد الذي بيننا.. وإلا ذهب كل منا لحال سبيله».

لاذت بالصمت ثم قالت: «لا بأس..».

انتشر الخبر في أروقة الفندق وأخذ الجميع يتحدث عن الموسيقي الإيطالي عازف الأورج الذي أحب الراقصة شمس، وأعلن إسلامه من أجل أن يتزوجها، كان الخبر مثيرًا وطريفًا، فهناك من رأى أنها نزوة سرعان ما تنطفئ جذوتها، وتتحول إلى رماد تذروه الرياح، ثم يعود إريان إلى وطنه، وتعود شمس إلى بلدها، ثم ينتهي الأمر، وهناك من رأى أن الأمر ليس فيه غرابة فللإنسان مطلق الحرية في أن يعتنق من العقائد ما شاء، وفئة قالت: أنه أخطأ، وفئة أخرى رأت أنه أصاب، بقي فريق خاص من النساء كان يعرف أسرار ما يجري، فرأى أن إريان قد درس الإسلام دراسة وافية، واعتنقه عن اقتناع بصرف النظر عن قصة الراقصة شمس التي كانت مجرد سبب فتح عينيه على عالم من الفكر والعقيدة لم يكن لديه معرفة حقيقية به من قبل..

وفي أثناء الليل غادر إريان -عبد الله كارلو- الفندق في هدوء دون أن يشعر به أحد، حتى شمس نفسها لم تعلم بحضوره أو بخروجه إلا ظهر اليوم التالي.

***

11

حينما علمت شمس بخبر إسلام إريان رقص قلبها فرحًا، كان شعورها مزيجًا من الفرح والدهشة والثقة، أليست هي التي فتحت أمامه الطريق حينما أبدى رغبته في الزواج؟ ألم تستطع بلطفها وجمالها وجاذبيتها الآسرة أن تؤثر فيه وتجعله يقع في غرامها، ويستعد للتضحية بأغلى ما يملك للفوز بها؟ ألم تكن رقصاتها وأغانيها وكلماتها الحلوة هي التي سيطرت على مشاعره، وألهبت عواطفه، وجعلته ينطلق ليفعل أي شيء تريده حتى تغيير عقيدته؟ ليس لديها اليوم أي تردد في الموافقة على الزواج منه، وهي بدورها يجب أن تبادله التضحية بتضحية، وحبًّا بحب، فقد سبقها في هذا المجال بمسافات شاسعة، ولقد جاء الوقت الذي يجب أن تجري فيه وراءه، وتلهث في إصرار حتى لا يضيع منها، وخاصة أن كل شروطها وتحفظاتها وترددها قد سقطت كلها تحت أقدام حبه وتضحياته، ثم إن عليها أن تهزم تلك المرأة التافهة القادمة من روما، والتي

تريد أن تستحوذ عليه مرة أخرى، حتى لكأنه إرث شرعي لها، لابد أن تعود صوفيا من حيث أتت بخفي حنين كما يقولون مهزومة مقهورة، وشمس تجد لذة كبرى في ذلك، بل إن فرحتها لن تتم، وسعادتها لن تكتمل إلا إذا سحقت هذه الحشرة الحقيرة، وأعادتها إلى بلدها ذليلة كاسفة البال، إن لذة النصر على صوفيا لا تقل متعة عن لذة الحب الكبير الذي تكنه لإريان ذلك الحبيب الملائكي النظرات، صاحب القلب الطيب، والعواطف الصادقة المبرأة من الطمع، ارتدت ملابسها على عجل بعد أن تزينت كعروس، ووقفت أمام المرآة لتطمئن على جمالها وهندامها، وتستكشف قدرتها على التأثير والإغراء، ووضعت أغلى العطور وأجملها رائحة، ولم تنس أن تستعين بالله، وتدعوه من كل قلبها أن يوفقها في تحقيق أمانيها، فقد أيقنت أنها لن تحب أحدًا في حياتها كما أحبت هذا الرجل إريان. ثم إن قصة حبهما من أولها إلى آخرها قصة حب مثيرة مليئة بكل عناصر التشويق والإثارة، وسوف تتلقفها الصحف والمجلات هنا وهناك بالاهتمام الذي تستحقه، إن قصص النجوم في العادة لها جاذبيتها، ويقبل الناس على قراءتها بشغف حتى ولو كانت قصصًا تافهة أو حتى ملفقة، فما بالك بقصة كهذه قل أن يوجد مثلها في الوسط الفني، بل إن شمس تفكر الآن في كتابة مذكراتها المثيرة، ومن يدري قد يأتي إليها أحد المخرجين أو

المنتجين السينمائيين ويطلب منها تحويلها إلى فيلم سينمائي، مقابل مبلغ كبير من المال، وسوف تعود مع إريان بعد الزواج إلى بلدهم هانئة سعيدة منتصرة ولابد أن يكون في انتظارها آلات التصوير والأصدقاء والمعجبون الذين سيفرحون لفرحها، إن لديها الآن قدر لا بئس به من المال تستطيع أن تستثمره في مشروع فني يدر عليها دخلًا لا بأس به، كما أن إريان موسيقي بارع ويستطيع أن يستغل موهبته، فتعود عليه بعائد معقول، وَلِمَ لا تفتح ملهى خاصًا بها، وتسيِّره بنفسها، وتكسب من ورائه شهريًا عشرات الألوف من الجنيهات؟ إن المستقبل يبدو أمامها مشرقًا باسمًا، فكل شيء على ما يرام، ولن تعارض أمها مثل هذا الزواج، فهي امرأة طيبة، ولا يهمها إلا أن تكون ابنتها سعيدة في حياتها، لديها ما يكفيها من الرزق، لقد نسيت شمس موعدها بسبب الأحلام والأماني الكثيرة التي تعتلج في نفسها، إن عليها الآن أن تذهب إلى حيث يوجد إريان بعد أن ترك الفندق والفرقة نهائيًا، ولم يكن أمامها سوى أن تستدعي المرشد السياحي على الذي يعرف كل شيء عن حبيبها.

عندما جاء علي نظر إلى شمس نظرة طويلة وقال:

- «إلى أين؟».

- «إلى إريان.. لابد أن نبدأ إجراءات الزواج».

قال علي في حرج:

- «لا يمكن أن تذهبي إليه على هذه الصورة».

- «لماذا؟».

- «إن المكان الذي يوجد فيه لا يسمح بالدخول إلا للمحجبات وحدهن، هذا إذا سمح بدخول النساء..».

قالت شمس:

- «سأنتظر بعيدًا، وستذهب وتدعوه للحضور لمقابلتي».

- «لكنه في خلوة لا يخرج منها إلا إلى المسجد..».

- «خلوة؟؟ وما هي الخلوة؟».

- «مكان خاص يتفرغ فيه للقراءة والعبادة».

- «وهل يقضي يومه كله في ذلك؟».

- «في الحقيقة إنه يفعل ذلك بحماسة على الأقل في هذه الأيام».

قالت في إصرار:

- «خذني إليه، ولا شأن لك بشيء بعد ذلك».

- «لا أستطيع..».

- «إذًا أعطني العنوان، وسأذهب إليه وحدي في سيارة أجرة».

هزَّ المرشد السياحي (علي) كتفيه وتمتم:

- «أنت حرة».

كانت واثقة من جمالها وأناقتها وقوة تأثيرها، ألم تكن هذه المؤهلات هي التي جعلت إريان يستسلم لها فيرفع الراية البيضاء؟ نزلت من السيارة قبالة المسجد الذي وصفه لها علي، ثم اقتربت من مبنى صغير من غرفتين إلى جوار المسجد، ثم دقت الجرس، وبعد فترة قصيرة فتح الباب، وأطل منه وجه إريان الذي بدأ شاحبًا بعض الشيء نظر إليها في دهشة:

- «ما الذي جاء بك إلى هناك؟».

ابتسمت قائلة:

- «قدماي، ألا توسع لي لأدخل».

قال دون أن يعيد النظر إليها:

- «هذا مكان للرجال فقط ولا يدخله النساء».

- «حتى أنا؟».

- «كلامي واضح».

-«ماذا أصابك؟».

- «لا يصح أن تأتي هنا بهذه الملابس والزينة الصارخة».

- «لقد أتيت من أجلك يا حبيبي ولأهتك».

- «أنت لست محجبة».

- «وهل تتحجب الراقصة؟».

- «إذا فهمت حقيقة إسلامها».

- «هل الرقص كفر؟».

- «فسوق وعصيان وتبذل».

- «أهكذا تقابلني بعد أن أنتظرتك طويلًا، وأخلصت لك حبي، وضحيت بهم جميعًا من أجلك..».

- «أعرف...».

- «فلماذا ترفضني الآن».

- «لأنك بمقاييس الإسلام الذي عرفته أبعد ما تكونين عنه».

لم تصدق أذنيها، شعرت بالألم والخجل، أرادت أن تصفعه، أو تقبض على عنقه بيدها وتعتصره، لكنها في نفس الوقت تمنت أن تحتضنه، وتغرق وجهه بالقبلات، لكن صوت المؤذن انطلق مكبرًا، فقد جاء أوان صلاة العصر.

قال لها:

- «اذهبي.. فالرجال قادمون، ولا يصح أن يروك على هذه الصورة المخزية».

- «وكيف ألقاك؟ ومتى؟».

- «سأبعث إليك.. أو آتي بنفسي.. إن بيننا أمورًا يجب أن نحسمها معًا...».

كان صوت المؤذن يجلجل في مكبر الصوت وبدأ الناس يزحفون صوب المسجد، سمعت إريان يقول:

- «سأذهب إلى الوضوء.. ويجب ألا تبقي هنا أكثر من ذلك».

هرولت في اضطراب إلى عرض الشارع، وأوقفت سيارة أجرة، ثم دلفت إليها، ومضت السيارة.

كانت دموعها تتساقط في صمت، وكانت تبادر بتجفيفها مخافة أن تشوه زينتها، وشعرت بغضب هائل أوقف الدموع من الانسكاب، اجتاحتها لحظة تحد وتمرد، ماذا يريد هذا الرجل منها؟ لقد كان بالامس متطرفًا في تحضره وأسلوب حياته، واليوم يتطرف جمودًا وتحجرًا وتعصبًا، هل من المعقول أن تتحجب الراقصة؟ وكيف ترقص؟ أترقص وهي تلبس خمارًا

وعباءة.. الفتيات في التليفزيون يرقصن هنا ويطوحن شعرهن يمنة ويسرة، وأمام وخلف على أنغام الموسيقى الشعبية، والرجال بينهن يلعبون بالسيوف ويرقصون رقصة العيالة.

وعادت شمس تفكر بروية، إن إريان الآن في غمرة الحماسة والاندفاع، وهو يريد أن يسلك السلوك المثالي في الدين مثل العارفين والصالحين من رجال الله، ولابد أن صدق هذه الحماسة ستخف قليلًا، عندما يرى أن الحياة لا يمكن أن تمضي على هذا النحو من المثالية في زمن مثل زماننا المليئ بالمغريات والأفكار والمشاكل والتعقيدات، فلا بد أن تعتصم شمس بالصبر، وتحاول بأسلوبها المرن، وذكائها الفطري أن تقربه إليها من جديد، بطريقة ترضيه ولا تجعله يهجرها إلى الأبد، لقد قامت بدور البطولة في رحلته من الشك إلى الإيمان واليقين، وهو لا يمكن -ما دام مسلمًا عادلًا- أن ينكر جهودها في ذلك، ولن يظلمها أو يتنكر لعواطفها، إن زواجه منها أصبح ضرورة، وإلا فسدت القصة المثيرة من أولها إلى آخرها، ربما يكون الزواج هو التتويج الحقيقي لهذه القصة.. رجل انتقل من ظلام الضلال إلى نور الإيمان بفضل امرأة.. امرأة ترقص وتغني.. لسوف تتشبث شمس به حتى آخر لحظة من حياتها، ولن تتركه يفلت.. إن الناس إذا تحدثوا عن إسلامه فسوف يتحدثون عنها هي بالذات أكثر، وسيقول الحكماء:

- «يا سبحان الله.. رجل اهتدى على يدي راقصة».

حينها عادت شمس إلى الفندق كانت ثائرة محمرة العينين وأسرعت الخطى قاصدة المصعد، إذ وجدت أنها في حاجة ماسة إلى الذهاب إلى غرفتها، والانطواء على نفسها كي تواصل التفكير، لكنها سمعت صوت «صقر» يدعوها.. فكرت أن تعتذر له وتمضي لحال سبيلها، لكنها عادت تقول لنفسها، ولماذا لا أجلس معه كي يرفه عني، وأنسى ولو إلى حين تلك المشكلة المؤرقة.

اغتصبت ابتسامة مجاملة، وقصدت إليه، صافحته ثم جلست قبالته، تفصل بينهما طاولة صغيرة.

- «ماذا بك يا شمس؟».

- «لا شيء».

- «نحن العرب هنا لدينا فراسة لا تخطئ...».

أحنت رأسها في ألم وقالت:

- «لقد عاملني بخشونة وبدون أية لياقة».

- «إريان؟».

- «نعم هو... كيف عرفت؟».

- «لا حديث للناس سواه في المدينة».

- «هل أصبح مشهورًا لهذه الدرجة؟».

- «وأنت أيضًا.. الراقصة التي أخذت بيده إلى طريق الإسلام».

ابتسمت في سعادة هذه المرة وقالت:

- «أيزعمون ذلك حقًا؟».

- «أليس هو الحقيقة؟».

- «لكن إريان..».

قاطعها صقر قائلًا:

- «لم إريان.. اسمه الآن عبد الله كارلو».

- «سبحان مغير الأحوال».

- «وسوف تقيم له دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية حفلًا كبيرًا بهذه المناسبة، وخاصة أنه أخذ حكمًا من المحكمة يؤكد إسلامه..».

قالت ضاحكة:

- «ألا يسمحون لي بالرقص في هذا الاحتفال؟».

- «لو سمع أحد هذا الكلام لأخرجوك من البلاد وفي خلال ساعات..».

قالت في غضب:

- «تصور أنه يريد مني أن ألبس الحجاب».

- «وماذا في ذلك؟».

نظرت شمس إلى صقر في استغراب وقالت:

- «كيف لمثلي أن تتحجب أو تتبرقع؟؟».

- «الحجاب في النهار.. والرقص سافرة في الليل».

- «أتسخر مني!».

- «أبدًا.. هناك ملابس الشغل يرتديها أصحاب الحرف والمهن المختلفة أثناء العمل، ثم يخلعونها بعد ذلك..».

قالت شمس بعد لحظة تفكر:

- «هذا انفصام في الشخصية، وأنا لا أستطيع أن أعيش بوجهين، ولا أظنه يوافق على ذلك..».

نظر إليها صقر نظرات ثاقبة قوية، ثم قال:

- «أكرر طلبي في الزواج منك، لن تندمي كثيرًا.. إنها صفقة رابحة على أية حال. لي.. ولك.. وأنا أحبك حقًا حبًا لم تحظ به امرأة قبلك..».

قالت وهي تعبث بخصلات شعرها:

- «أعرف، لكني لا أستطيع العيش بعيدًا عن وطني إلى الأبد».

- «هذا حق.. لكني سوف ابني لك بيتًا لائقًا في بلدك، وستعيشين هناك.. وسآتي لك كل شهر بضعه أيام.. وإذا رزقنا الله بأولاد فسينشأون تحت رعايتك... ولسوف أوفر لكم كافة مطالب الحياة..».

قالت وقد عادت الدموع إلى عينيها:

- «لا أتصور أنني فقدت إريان إلى الأبد..».

- «هكذا الحياة فيها الكثير من المرارة.. لكنها لا تتوقف».

هتفت في إصرار:

- «أنا التي صنعته.. تمثال الحب الذي شكلته.. ولن أفرط فيه».

صمت صقر برهة، فقالت له:

- «هل تضايقت؟ إن ما قلته لن يؤثر على الصداقة التي بيننا».

ابتسم في ود حقيقي وقال:

- «أنا رجل أعمال، أكسب كثيرًا، وأخسر أيضًا.. وعليّ دائمًا أن اعتصم بالصبر، يتعذر علينا النجاح إذا لم نصبر.. عندما أخسر جولة لا أستسلم لليأس، ولكني أعد لجولة جديدة.. إنني أحبك.. هذه هي الخلاصة.. والمحب يجب أن يخلص للأبد.. سواء تحقق المراد أو لم يتحقق..».

قالت ساهمة:

- «ليت إريان يقول لي مثل هذا الكلام!! عندنا مثل يقول:

«يعطي الحلق (القرط) للتي بلا آذان..».

وضحكا..

لكن ضحكتها لم تكن نابعة من القلب.

***

12

لم يخف على إريان أن شمس في وضع مؤلم، وأنها تخلص له الود، لكنه رأى أنها مسلمة بالوراثة، ولا تعرف عن دينها إلا بعض الآداب والتقاليد المرعية التي لا تدل على وعي حقيقي بأمور العقيدة، فهي في صورتها العامة لا تختلف عن أية امرأة أوروبية أو أمريكية، ولا فرق بينها وبين نساء النصارى واليهود والملل الأخرى الذين لا يعلمون عن الدين إلا القشور، شعر إريان بالحيرة حيالها فهو واثق أنها تحبه، لكن الحب الحقيقي في نظره هو الاندماج والتوافق في ظل ما يؤمن به، وعندما اشتدت به الحيرة ذهب إلى الشيخ عيد اليعقوبي يسأله:

- «إنها تحبني».

- «والحب يا ولدي ألوان».

- «أعرف، ولكن ماذا أفعل؟».

- «افعل ما يمليه عليك ضميرك».

- «القلق يراودني».

- «يقول نبينا ﷺ: «اظفر بذات الدين تربت يداك».

- «هل كل الناس يفعلون ذلك يا سيدي عندكم؟».

- «الذين يفعلون ذلك قلة.. فالشهوة تغلب الحكمة».

هزَّ عبد الله كارلو رأسه وقال:

- «لكن قد تتغير الأمور بعد الزواج».

- «مجرد احتمال يا سيدي، أليس كذلك؟».

- «مثل أمور المستقبل.. والمستقبل بيد الله».

- «وماذا أفعل الآن؟؟».

لم يشأ الشيخ عيد أن يملي عليه أمورًا بعينها، فهو إنسان مؤمن حر الإرادة، ولديه عقل يستطيع به أن يزن الأمور بروية، ولا يستسلم لهواجس الشهوة، أو يخضع لإغراءات الشيطان، وبينما كان إريان (عبد الله كارلو) مشغولًا بأمر شمس، جاءه زميله بينيتو في المساء، كان بينيتو ساخطًا عليه أشد السخط، لكنه أخفى مشاعره الحقيقية، وأفهمه أن من حقه أن يختار العقيدة التي اعتنق بها، فهذا شأنه الخاص، وليس لأحد أن يتدخل فيه، ولكنه أوعز إليه بأسلوب ملتوٍ أن يعيد التفكير فيما

فعل دون ضغوط وخير وسيلة لذلك هو أن يعود إلى روما، وهناك سيجد الوقت والهدوء، لإعاد النظر في أمر مصيري خطير كهذا الأمر، وسوف يستنير برأي أبيه وأمه، وعلماء الدين الذين يلمون إلمامًا واسعًا بشؤون العقيدة، وهناك لن يجبره أحد على اعتناق ما لا يريد، وهزَّ عبد الله كارلو رأسه، وأجابه بأنه لا يهرب بعقيدته من مجتمعه أو من أي مجتمع في الدنيا، بل عليه أن يواجه العالم كله بما اقتنع به، بل يستطيع أن يدعو الناس إلى تصحيح عقائدهم دون خوف أو وجل.

قال له بينيتو:

- «إنك تلعب بالنار».

- «النار لمن ينحرفون عن الدين الحق».

- «وستدفع ثمنًا غاليًا جزاء تسرعك».

- «إنني مستعد للتضحية بكل شيء في سبيل الله».

- «ذلك هو الهوس الديني».

- «لقد اختلفنا جوهريًا، فليذهب كلٌّ منا بحال سبيله».

- «أتطردني يا إريان؟ لماذا لا تفسح صدرك لي؟ ألا يجوز أن أقتنع بما اقتنعت أنت به؟».

- «يا ليت.. لكنك كلاسيكي في فهمك للدين، كما أنت كلاسيكي في نوع الموسيقى التي تعزفها، تكره الأفكار الجديدة، وتدَّعي التحرر وأنت ترسف في أغلال العبودية».

هتف بينيتو في غضب:

- «العبيد هم من لا يملكون السيطرة على نفوسهم، العبيد هم من يتخلون عن عقيدتهم تحت تأثير الشعارات والإدعاءات العاطفية..».

- «بل العبيد هم المتعصبون المنغلقون الذي لا يبحثون عن الحقيقة».

ثار بينيتو قائلًا:

- «العبيد من يتنازلون عن أعز تراثهم من أجل امرأة.. نعم امرأة تبيع نفسها للجميع..».

- «من تقصد؟».

- «شمس، أليست هي التي خدعتك، وجعلت منك أضحوكة».

أغمض عبد الله كارلو عينيه قليلًا وهو يفكر ثم قال في شرود:

- «لقيتها صدفة.. أعجبت بها.. والشباب يعجبون بكثير من النساء.. أمر طبيعي.. فتحت لي بابًا مغلقًا.. سرت في الطريق أبحث وأبحث.. كانت مجرد سبب.. وحينها وصلت إلى الحقيقة لم أجد شمس هناك.. نعم.. وجدتها أبعد ما تكون عن الحقيقة.. قالت لي: ها قد التقينا أخيرًا.. قلت لها: لا.. بل افترقنا. ذلك لأنك تعرفين أن هناك حقيقة، لكنك لا تعرفين عنها شيئًا، بل إن أفعالك وسلوكك معاديان تمامًا لتلك الحقيقة..وكان الفراق.. هل فهمت الأمر يا بينيتو على وجهه الصحيح؟».

رمقه بينيتو بنظرات شاردة وقال:

- «كل ما فهمته هو أنك مريض..».

رد عبد الله كارلو بكلمات من القرآن:

- ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء:82].

عاد بينيتو ينظر إليه بغضب:

- «أنت حالة مستعصية».

ابتسم عبد الله وهزَّ رأسه قائلًا بكلمات أخرى من القرآن:

- ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧ ﴾ [يس:26].

قبل أن يرحل بينيتو قال في شماتة وهو يرقب وجه عبد الله كارلو:

- «نسيت بأن أخبرك بأني سأتزوج».

- «أهنئك..».

- «لم تسألني من؟».

- «أعرف أنك تهوى الجمال الصارخ، لكن لا تقل لي شمس..».

صمت بينيتو برهة ثم قال:

- «بل صوفيا..».

- «صوفيا بالذات؟».

- «هل تضايقت؟».

ابتسم عبد الله ابتسامة خفيفة وتمتم:

- «عادت لتستردني فلما فشلت لم ترد أن تعود بيد خالية».

ردَّ بينيتو في غضب:

- «بكت تحت قدمي.. أعطتني كل ما أريد، وتنازلت عن كل تملك، هل تفهم؟».

- «وكيف لا أفهم؟ إنني أعرف فتيات روما.. ربات الحضارة..».

نظر إلى عبد الله في توعد وتهديد وقال:

- «إنها السخرية يا إريان، ونحن لا نغفر السخرية..».

- «حقيقة إن الأمر لا يعنيني يا صديقي الثائر..».

وخرج بينيتو والشرر يتطاير من عينيه.

وبعد أن خرج جلس عبد الله كارلو وحده يفكر من جديد في أمر شمس، وتأكد له أن الأمر لابد أن يحسم نهائيًا، لكنه فوجئ بالشيخ عيد اليعقوبي يدخل عليه مستأذنًا دون موعد سابق، بعد أن ألقى عليه السلام، أفهمه أنه لن يبقى معه طويلًا، لعلمه أنه مستغرق في قراءاته، ثم قال له:

- «حاليًا لم نجد لك عملًا مناسبًا، لكن بصفة مؤقتة عثرنا لك على وظيفة سائق سيارة بوزارة التربية والتعليم، والمرتب حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة درهم، إنها توازي ثلث المرتب الذي كنت تتقاضاه في الفندق كعازف».

ردَّ عبد الله كارلو في فرح:

- «مرحبًا بالرزق الحلال، إنني أرضى بأقل من ذلك، إن الهداية التي أسبغها الله عليَّ أغلى من كل كنوز الدنيا..».

أشرق وجه الشيخ عيد بالفرحة، وحمد الله، ثم قال:

- «أمرٌ آخر..».

- «أنا طوع أمرك».

- «زوجة طاهرة طيبة حسنة الإسلام».

- «وأين أجدها؟».

- «يجب أن تراها وتجلس معها أولًا».

- «ذلك لاستكمال نصف ديني كما تقولون».

- «هي معلمة بإحدى مدارس الوزارة.. سورية الأصل.. تراعي ربها وآداب دينها، وهي موافقة إذا وافقت أنت..».

انشرح صدر عبد الله للفكرة، إنه أسلوب في الزواج لم يألفه قبل ذلك في روما، ومع ذلك فإن شعورًا داخليًا يوحي إليه بأن ذلك خطوة موفقة، وجاءه صوت الشيخ عيد:

- «لك مطلق الحرية في أن ترفض أو تقبل.. وستكون لديك فسحة من الوقت للتفكير، وانا لم أفعل ذلك إلا لعلمي بأنك لن تعود مرة أخرى للتفكير في الزواج من الراقصة..».

ولم يشأ عبد الله أن ينقطع هكذا دفعه واحدة عن شمس، ويبحث عن عروس غيرها، دون أن يسوي معها الأمر، فقد عاشت العلاقة بينهما شهورًا طويلة، كانت مليئة بالمشاعر والأحداث، ويكفي أنها كانت سببًا في إسلامه.

لم يذهب إليها وحده، رافقه المرشد السياحي علي، وفضل أن يكون اللقاء خارج الفندق، حينما التقت به توهمت أنه قد قد عاد إليها يخطب ودها اعترافًا للجميل، وتقديرًا للأيام الجميلة التي قضياها معًا.

قال لها:

- «إن كل شيء بأمر الله».

- «أعرف ذلك يقينًا».

- «واعذريني إذا قلت لك، أنه لم يعد بيننا ما يجمعنا».

قالت في دهشة:

- «لم أتصور أن تتفوه بهذا الكلام، لقد سبق وانتقدتني انتقادًا لاذعًا».

قال في هدوء:

- «إن عبد الله غير إريان القديم».

- «لكن القلب لا يحنث بوعوده».

لم يلتفت كثيرًا إلى ما قالت وأردف:

- «أريد أمرأة مسلمة، تذكرني بديني، حتى نعيش في أنواره».

قالت متشبثة:

- «سأترك الرقص».

- «من أجلي؟؟».

- «نعم.. ولن أذوق الخمر ما حييت».

- «لإرضائي؟».

- «نعم.. وسأتحجب.. وأصلي.. وأصوم..».

قال عبد الله لها:

- «لنفترض أنك فعلت ذلك، ثم لم أتزوجك، فماذا أنت صانعة يا شمس».

- «إنني أفعله من أجلك، وإلا لما فكرت في ذلك».

- «المؤمنون الحقيقيون يفعلونه من أجل الله».

قالت في إصرار:

- «بل من أجلك، أتريد أن أكذب عليك؟ أتضايقك الصراحة؟».

- «إنني أحترم صدقك».

- «فماذا بعد ذلك؟».

- «أن يذهب كل منا لحال سبيله».

هبَّت واقفة كنمرة شرسة:

- «لم أنهزم قط في حياتي».

- «إنها ليست هزيمة لو نظرت إليها نظرة عادلة..».

- «أنت تحرضني على الـ..... أستغفر الله».

قال لها:

- «لن أنسى فضلك.. سنعيش كأخوين في الله.. وستظل علاقتنا مبرأة من الغرض الدنيوي الزائل.. وسأدعو لك دائمًا في صلاتي، ولسوف..».

قاطعته صارخةً:

- «كفى.. إنني لا أطيق سماع صوتك».

- «ذلك لأن الشيطان يقف بيننا..».

وفاجأته بصفعة لم يتوقعها.

احمر وجهه.. سقطت دمعة.. وضع يده مكان الصفعة.. تمتم:

- «سامحك الله يا شمس».

عادت ثائرة إلى الفندق، لم تكن ترى أمامها شيئًا، عميت عن كل ما في الوجود، ليس في رأسها سوى صورة الهزيمة النكراء

التي مُنيت بها، وخُيِّل إليها أنه يجلس على عرش من نور، وأنها ملقاة عند قدميه تستعطفه وتتوسل إليه، كما خُيِّل إليها أن الناس يرقبون مشهدها الذليل في شماتة، ويسخرون منها، وأن جمالها أكذوبة، وسيطرتها على الرجال وهم، وأمنها عبث، وأحلامها رماد، والمستقبل سواد في سواد، إنها الهزيمة المريرة.. الموت ولا هذا، وفي غرفتها أخرجت قارورة للأقراص المنومة، وابتلعت كثيرًا منها، وبعدها سمعت جرس التليفون وصاحت بصوت حزين واهن: «أنقذوني.. أنقذوني.. إنني أموت» أحضروا لها طبيب الفندق، أسرع بعمل غسيل معدة، كانت شبه نائمة، نقلوها إلى «مستشفى راشد» بدبي، وإبرة المحاليل مغروزة في وريدها.. سمعوها تتمتم: «إريان قتلني.. إنه يبدأ صفحاته الجديدة بالجريمة».

انتشر النبأ في أرجاء الفندق، وتخطاه إلى الشارع، والتقطته إحدى الصحف، ونشرته بصورة غامضة، واكتفت بوضع بعض الحروف بدلًا من الأسماء.. بكى عبد الله كارلو لمأساتها قال لمن حوله: «لم أتوقع أن يحدث لها ذلك، إنني لم أكرهها قط، لكن الزواج مسألة أخرى، ويجب أن تفهم شمس ذلك.. الكثيرون معجبون بها، ويتمنون الزواج منها.. ماذا أفعل يا ربي؟ هل أضحي وأتزوجها؟ لكن الأمر لا يصح أن يمضي على هذا

النحو..» كان عبد الله كارلو يعاني من الحيرة وتأنيب الضمير، لكنه لم يكن يعرف ماذا بوسعه أن يفعل.

تماثلت شمس للشفاء في وقت قصير، ورأى أطباؤها أن ينصحوها بتغيير الجو والمكان، حتى تتخلص ولو جزئيًا من ملابسات الأحداث المؤلمة التي تعاني منها، واقتنعت شمس بما قالوا، وخاصة عندما تأكد لها أنها قد فقدت عبد الله/ إريان إلى الأبد، وقالت لنفسها وهي تصعد للطائرة المتجهة إلى بلدها:

- «كان إريان حلمًا جميلًا.. أفقت منه فلم أجده..».

ولم يمر وقت طويل حتى التحق عبد الله كارلو بعمله الجديد في الوزارة التي تعمل فيها زوجة المستقبل، بل تزوج بالفعل..

هدأت العاصفة، وصفا الجو، وألف عبد الله حياته الجديدة، ونعم بوجود زوجة إلى جواره، وأهدى له رفاق المسجد سيارة صغيرة كان سعيدًا بها، كما ساهموا معه في تأثيث بيته الصغير الذي استأجره في مساكن الشيوخ بأجر شهري بسيط، وخلد إلى راحة حقيقية لم يذق مثلها طول حياته.. وذات مساء همس لزوجته «ميسون» قائلًا:

- «لقد أحببت الإسلام حبًّا ملك عليَّ حياتي».

- «أعرف...».

- «وأفكر في أن أخرج إلى العالم لأدعو الناس إلى الله، مسلمين وغير مسلمين.. إنهم في حاجة إلى الإيمان الصحيح.. هناك يا زوجتي الحبيبة من لا يعرفون شيئًا عن الإسلام، وهناك مسلمون تشوهت عقيدتهم أو انصرفوا عن جوهر دينهم..».

ثم صمت برهة، وعاد يقول:

- «إنني واثق أن أوروبا وأمريكا حقل خصب للدعوة، فلماذا نتراخى عن أداء ذلك الواجب.. ألا تعتقدين أننا كمسلمين مقصرين في أداء الرسالة ونشر الدعوة؟؟».

ولأن الزوجة كانت متعبة، فقد قهرها سلطان النمو.. ولم ترد عليه..

❊❊❊

13



كانت «ميسون» شامية المنشأ، حلوة التقاسيم، دافقة المشاعر، نشأت في بيت علم وفضل، فيها ذكاء وأريحية، كان أبوها من رجال الفكر الإسلامي المرموقين، تعرض لأزمة سياسية قاسية في حياته، فنواها هجرة، ورحل هو أولاده إلى بلاد الله الواسعة، فمنهم من رحل إلى بلاد العم سام، ومنهم من استقر به المقام في إحدى دول الخليج، وأحدهم ذهب إلى استراليا، أما ميسون فقد وجدت فرصة للعمل كمدرسة في دبي، وكان لها نشاطها الاجتماعي والديني بين النسوة، خاصة في «جمعية الإصلاح الاجتماعي» بدبي، وجمعية «أم المؤمنين» في إمارة عجمان، وكانت تجد في أنشطتها لذة وطاعة لله، فتلقى المحاضرات، وتعقد الندوات، وتناقش الكتب الجديدة، وتشارك بقلمها فيما يصدر من مجلات وصفحات إسلامية بالصحف، كما أن لها بعض المؤلفات الصغيرة التي تعالج جانبًا من قضايا المرأة المسلمة، وكانت على اتصال دائم بأبيها وأمها

اللذين يقيمان بالمملكة العربية السعودية في المدينة المنورة وكذلك باقي إخوتها وأخواتها السبعة الذين تناثروا في أنحاء الدنيا الواسعة، ولقد تحمَّست للزواج من عبد الله كارلو كجزء من رسالتها المقدسة في الحياة، والواقع أنها دخلت قلبه منذ أن رآها لأول مرة قال لها بعد الزواج:

- «لقد آمنت بنظرية الحب من أول نظرة».

ابتسمت قائلة:

- «هذا بفضل الله، إن قدر الله ما هو إلا جزء من النظام الذي شمل به الكون..».

أمسك بيدها في حنان، وأخذ يتطلع إلى وجهها الفاتن وقال:

- «ما هو الحب في رأيك؟».

سحبت يدها بهدوء وهي تقول:

- «هو ما تراه هنا في هذا العش الجميل الصغير».

- «أريد أن تعبري عنه في كلمات».

قالت وقد احمر وجهها خجلًا:

-«الوقائع أبلغ من الكلمات، أنت تعرف يا عبد الله أن الألفاظ كثيرًا ما تعجز عن التعبير الوافي».

قال لها:

- «ألا يمكن أن يكون الحب اندماج روحين».

- «وجسدين..»..

- «وتصالح فكري يا ميسون».

- «قد نختلف، ولكن نظل حبيبين يا عبد الله».

- «لم نصل بعد إلى تحليل ووصف دقيق للحب يا ميسون الحبيبة».

تنهَّدت قائلة:

- «لأننا نحلل ما لا يجوز تحليله، ونصف ما يصعب وصفه، ذلك لأن الحب أكثره أسرار مجهولة، والظاهر منه لا ينسحب على الخفي ربما يكون ذلك لأنه سر من أسرار الخلق، ألا تعرف الآية القرآنية التي تقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً..﴾ [الروم:21].

تمتم مفكرًا:

- «مودة ورحمة؟؟».

- «نعم...».

صفق بيديه قائلًا:

- «لقد وجدتها.. هذا هو تعريف الحب الخالد.. مودة ورحمة ما أعظم هذه الكلمات!!».

تناهى إلى سمعها الصوت الندي الذي يؤذن لصلاة الفجر، فقام واغتسل وتوضأ عازمًا على الذهاب إلى المسجد أما هي فقد فضلت أن تؤدي الفرض في البيت، قال وهو يرتدي جلبابه الأبيض:

- «لم أحب أحدًا في حياتي كما أحببت محمدًا».

- «ﷺ..».

- «الإنسان الكامل.. كتب عنه أحد الكتاب المسيحيين الكبار وقال: العظماء في التاريخ مائة.. أولهم محمد ﷺ».

قالت ميسون وهي تحضر له الحذاء:

- «وما الفائدة! إنه لم يؤمن بما أتى به محمد ﷺ».

- «لا يهم، إنها شهادة من محايد يتحرى الصدق، ومن يدري قد يسلم يومًا ما».

- «إنني أرى في أوروبا وأمريكا عجبًا».

- «لكن هناك فضيلة عند البعض، ذلك أنهم لا يترددون في قول الصدق المدعم بالبراهين، حتى وإن خالفوه...».

- «إنهم كثيرًا ما يفكرون في عظمة محمد ﷺ كبشر دون أن يفكروا في الدين الذي يدعو إليه، والذي شكل شخصيته الربانية الفذة».

وكم كانت دهشة عبد الله كارلو، عندما فوجئ بميسون تتوقف عن الكلام وتقول وقد اكفهر وجهها الجميل:

- «أكنت تحبها حقًّا».

- «من؟؟».

- «شمس».

قهقه في سعادة وقال:

- «أتغارين منها؟ لكن ما الذي ذكرك بها الآن ونحن نهم بأداء الصلاة؟».

قالت في شيء من الضيق:

- «أعجب كيف تحب راقصة، تعرض جسدها لنهشات العيون الشرهة الجائعة..».

خفض رأسه قائلًا:

- «كانت نزوة.. في زمن الجاهلية..».

- «بل عشقًا وهيامًا».

- «قلتم لي أن الإسلام يَجُبُّ ما قبلهُ، وستولد من جديد».

- «هذا صحيح، لكني لا أستطيع أن أنسى».

- «ذلك لأنك امرأة..».

- «أتقارنني بها!!».

- «ألم تحبي أحدًا في حياتك قبلي؟».

تلعثمت قليلًا، وشردت بضع لحظات، وبدت إمارات الحزن على وجهها، ثم قالت:

- «لقد تعاهدنا على الصدق، وما كان يجب أن تلقي هذا السؤال».

- «لن أتضايق إذا كان قد حدث، ذلك لأني واثق أنه انتهى تمامًا»

قالت وهي تلقي بجسدها على أقرب مقعد:

- «لم ألتق به على انفراد.. كلمني أبي في الزواج منه.. لكنه كان شابًا متحمسًا تصدى للظلم، ورفض الذل.. ثم.. ».

قال في لهفة:

- «ثم ماذا يا ميسون الحبيبة؟».

- «قتلوه..».

صمتت برهة ثم عادت تقول:

- «أحببته بعد أن مات شهيدًا.. أردت أن أضع وسامًا على صدره المضرج بالدماء».

أراد عبد الله كارلو أن يبدد سحابة الحزن التي ظهرت في أفقها فجأة، ودون سابق إنذار فقال:

- «هذه بتلك.. فأنا بريء من تهمة شمس».

- «لكنهما مختلفان..».

- «أفهم من ذلك أنك ستمنحينني وسامًا مشابهًا على صدري إذا اختارني الله للشهادة..».

انقبض صدرها، ودق قلبها وهتفت:

- «ما هذا الذي تقول؟».

وأسرع بالخروج، فقد اقترب موعد إقامة الصلاة، خرج من الشارع الضيق الذي يسكن فيه سيرًا على الأقدام إذ أن المسجد قريب، مال إلى اليمين في شارع آخر يؤدي إلى المسجد، كان المنحنى خافت الضوء، إنه يمضي في طريقه وقلبه معلق بالصلاة، ويسبح ويحمد ويحوقل، تلك هي السنة.. لم يدرِ ماذا جرى له في لحظات، لقد شعر بيد مجنونة تهوى على جسده بخنجر.. صرخ.. استغاث.. سمعت ميسون صوته جرت

بملابس النوم حافية القدمين.. رأته ملقى على جانب الطريق ينزف، وحانت منها التفاتة، فرأت سيارة سوداء من الطراز الأمريكي تنطلق كالسهم رأت فيها شبحي رجل وامرأة لم تتبين ملامحهما ولم تستطع أن تلتقط رقم السيارة. رفعت صوتها بطلب النجدة.. هرول بعض من كانوا في المنازل القريبة.. أرسلت أحدهم للمسجد، أتى الشيخ عيد اليعقوبي، ومعه نخبة من تلامذته، لم يعد أحد من الحاضرين يفكر إلا في نقله إلى المستشفى بأسرع ما يمكن، وفي دقائق معدودة وصل إلى مستشفى راشد في البر الثاني من مدينة دبي، عندما طلبوا من يتبرع له بالدم تسابق الحضور وكل واحد يريد أن يحظى بالشرف الكبير، كان عبد الله كارلو في شبه غيبوبة. لم يفق إلا بعد ساعتين.. هناك جرح نافذ في الرئة اليسرى، لكن الإصابة لم تصل إلى القلب.. قال الطبيب «الحمد لله.. لقد كانت عناية الله تحرسه، بضعة مليمترات أنقذت حياته.. لأن الإصابة في القلب قاتلة على الفور..».

وقف الشيخ عيد عند المحراب بعد الصلاة وقال:

- «أيها الناس.. ادعوا لأخيكم عبد الله كارلو بالنجاة وألحوا في الدعاء.. ادعوا من أعماق قلوبكم.. إن الأيدي الشرير الملوثة بالشر أرادت أن تسكت صوته إلى الأبد ذلك لأنه نطق بكلمة التوحيد.. كلمة الحق.. إن القلوب السوداء لا

تعرف إلا الظلام.. وإن التعصب الأعمى عدو الحرية والحب والإخاء.. وأخوكم عبد الله كارلو كان يعرف أن طريقه ليس مفروشًا بالورود والرياحين.. لقد اختار طريق الدعوة إلى الله.. طريق التضحية والبذل والفداء، ولن تستطيع قوة في الوجود أن تطفأ نور الله.. اذهبوا إلى أخيكم في المستشفى.. قولوا له: إننا معك على الدرب سائرون، وبدين الله مستمسكون، والخنجر الذي صوبوه إلى صدره لن يغير قدر الله.. والله غالب على أمره..».

بعد أن تحسنت حالة عبد الله، ذهب الناس إليه في مسيرة حاشدة لم ير الناس مثلها من قبل في هذا البلد، ولم يكن مسموحًا لأكثر من اثنين بالتواجد حول المريض، واستطاع مدير المستشفى بمعونة الشرطة أن يجد حلًا لذلك، فأمر أن يذهب الزائرون في طابور طويل، ويمرون عليه مرورًا عابرًا دون مصافحة أو كلام.. كان عبد الله ينظر إلى الطابور الطويل وهو يبتسم في سعادة، وإلى جوار سريره تقف زوجته ميسون، وعلى الجانب الآخر الشيخ عيد اليعقوبي، وكان الشيخ كقائد للطابور يشير إلى السائرين بسبابته كي يمضوا خفافًا دون ضجيج، وقرأ عبد الله في العيون والوجوه عبارات الحب والوفاء والإشفاق.. عبارات لم ير أو يسمع مثلها في حياته.. دمعت عيناه فرحًا وحمدًا

لله.. جففت ميسون دموعه بعد أن انتهى الطابور، وخرج الشيخ عيد.

نظر عبد الله إلى ميسون في حب وقال:

- «والآن، هل أستحق الوسام الذي تضعينه على صدري، أم أن الأحياء لا يستحقون الأوسمة؟».

فهمت ما يرمي إليه، نظرت إليه في ود عميق نظرة أودعتها كل مشاعر الحب والصفاء. أرادت أن تتكلم فلم تستطع.. لقد شرقت بدموعها.

قال لها:

- «أتبكين؟ لقد نجاني الله من موت محقق».

مالت على صدره وأغرقته بالقبلات والدموع..

مسح على رأسها في حنان مشبوب وقال:

-«إنني سعيد.. سعيد جدًا.. لقد نلت الوسام أخيرًا..».

وضحكا معًا...

***

14

كان للاعتداء الآثم صدى في أنحاء مدينة «دبي» وفي الإمارات الأخرى، ذلك لأن المدينة تعيش في أمان واستقرار، وهي ميزة تحسدها عليها مدن العالم الأخرى، ثم إن الذي وقع عليه الاعتداء رجل أجنبي يجب أن تكفل له الحماية، فضلًا عن أن له ظروفه الخاصة، إذ أنه اعتنق الإسلام عن اقتناع وطواعية، وكان واضحًا أن الجريمة ارتكبت بدافع التعصب الأعمى المقيت، فليس هناك من سبب آخر يدعو إلى ارتكابها كالسرقة مثلًا، أو المعتقد السياسي، ذلك أن دبي تفتح صدرها لكل صحف ومجلات العالم، والناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم يقرأون ويحللون ما يرد من أفكار دون أن تكون لهم أدنى رغبة في تشكيل أحزاب أو جماعات سياسية، إنها بلد إنتاج وعمل وتجارة، تعتز بقيم الحرية والعمل فلا مجال لتضييع الوقت في المهاترات، إن المعارض والمؤتمرات التجارية والصناعية هي

السمة الغالبة في التجمعات الدورية، ثم تليها المهرجانات الرياضية، وقليل من المحافل الأدبية والفنية من هنا كان وقع الحادث وصداه كبيرًا، لهذا نشطت الشرطة في البحث والتحري عن السيارة الأمريكية الصنع السوداء وعمن كانوا فيها، ولقد عرفت شرطة دبي بالمهارة ودقة التحري والمتابعة، وكان مفتاح القضية لدى عبد الله كارلو.. فعندما تحسنت حالته رفض الإدلاء بأي تفاصيل عن الجاني، وذكر أنه يحمد الله على أن كتب له النجاة، وهذا أهم شيء، أما الجاني فلن يجني عبد الله من وراء عقوبته شيئًا ذا بال، لكن الشرطة ألحت في السؤال مؤكدة لعبد الله أن أمن البلد ككل يقتضي الإمساك بكل من تسول له نفسه الإخلال بالأمن، والاعتداء على أرواح الناس، وعدم احترام سلطة الدولة، واستطاعت الشرطة أن تمسك بخيط عندما عثرت على سيارة أمريكية مستأجرة تقف في «كراج» الفندق الذي كان يعمل به عبد الله من قبل، وتمكنت الشرطة أيضًا من معرفة المستأجر، وكان أخطر ما في الأمر أن العاملين بالاستقبال في الفندق قد أشاروا إلى خروج بعض النزلاء في الوقت الذي ارتكبت فيه الجريمة تقريبًا، وحامت الشبهات حول الموسيقى بينيتو، وكان لضابط التحقيق الشاب وسائله الذكية في الإيقاع بعبد الله كي يتكلم، فأفهمه أنه عرف كل شيء وقال لعبد الله كارلو:

- «المتهم اعترف».

اندفع عبد الله دون روية:

- «بينيتو؟؟».

- «نعم إنه هو».

- «كنت أريد أن أعفو عنه، لقد فعلها في لحظة طيش».

وصدر الأمر بالقبض على بينيتو وتوقيفه، لم يكن الأمر مفاجأة له، لأنه موقن أن عبد الله رآه، وما أن علمت صوفيا بخبر انكشاف المؤامرة حتى بادرت بالذهاب إلى المطار بحثًا عن أية طائرة تنقلها خارج دبي، وليس من الضروري أن تكون الطائرة متجهة إلى إيطاليا، ولم يمانع بينيتو في ذلك، لأن هرب الشاهدة الوحيدة سيكون في مصلحته، واستطاع ضابط الشرطة الشاب أن يستدرج عبد الله حتى اعترف أن صوفيا ربما تكون هي التي كانت ترافق بينيتو في سيارته، وبالاتصال بالفندق علم رجال الشرطة أنها غادرته، فأصدروا أمرًا فوريًا باعتقالها في المطار، ومنعها من السفر.

ورفض بينيتو الإدلاء بأية معلومات إلا بحضور مندوب عن السفارة الإيطالية. كما طلب حضور محام من روما كي يطلع على التحريات ويدافع عنه، وكذلك فعلت صوفيا.

في التحقيق انكرت صوفيا أية صلة لها بشيء مما جرى، وقررت أنها لم ترافق بينيتو تلك الليلة في أية سيارة على الإطلاق، ولم يعترض بينيتو على قولها، كما أن عبد الله كارلو لم يستطع الجزم بأنها هي التي معه في السيارة، ذلك لأن المسافة لم تكن بالقصيرة، والضوء الكهربائي كان خافتًا قبيل الفجر.

أدلى الشيخ عيد اليعقوبي بتصريح جاء فيه:

- «إن دبي تعيش من قديم كواحة من الأمن والأمان في ظل شريعة الله، والقوانين يجب أن تكون صارمة في إنزال العقوبة بكل من يعتدي على حياة الناس، وأمن المجتمع.. وقضية عبد الله كارلو ليست قضية فرد، ولكنها بالدرجة الأولى قضية مجتمع له مقدساته وتقاليده الراسخة».

أما عبد الله كارلو فقد صرح وهو على سرير المرض:

- «أوصانا نبينا الكريم بأن نعفو عمن ظلمنا، ونصل من قطعنا.. أوصانا أن نفشي السلام، وندعو العصاة والخطاة إلى التوبة والندم والاستغفار.. وقال لنا القرآن من عفى وأصلح فأجره على الله..».

أما صوفيا فقد صرحت بعد أن عادت إلى الفندق قائلة:

- «لا شأن لي بهذه القضية من قريب أو بعيد، كل ما في الأمر أن إريان (عبد الله) كان عاشقًا لي.. وكرر دعوته كي أزوره.. لم

آتي لأني أحبه.. ولكنني أتيت مدفوعة بحب الاستطلاع.. إن إريان ليس بالرجل الذي يصلح لي إنه إنسان محدود المواهب ضعيف الشخصية.. ولهذا كان ألعوبة في يد الراقصة، إنه لا يوثق به، ولا يعتمد عليه، بل لقد نما إلى سمعي أنه تسلم مبلغًا كبيرًا من المال ليغير دينه.

إنني صريحة، ولا أريد أن أنافق، وعندما أصل إلى روما سوف أرفع ضده قضية لأنه شهر بي، وأساء إلى سمعتي، فأنا من أسرة عريقة.. ولا تنسوا أنه ما زال مواطنًا إيطاليًا..».

وقال المرشد السياحي علي لمندوب إحدى المجلات:

- «إن عبد الله كارلو يتمتع بذكاء حاد، وشفافية صافية نقية.. أفضل ما فيه تحريه الحق والصدق، لا يساوم ولا يجامل، يعرف هدفه ويَجِدُّ في الوصول إليه دون مواربة.. إنه يذكرني بأولياء الله الصالحين.. وهو ليس بالرجل الذي يخضع لإغراء المال كما زعمت صوفيا.. هذا تشهير».

وغريمه القديم صقر علّق بهدوء:

- «عبد الله كارلو رجل شديد الحساسية، رومنسي النزعة، يتطلع إلى عالم جميل لا تشوبه الشوائب، ومثله في أيامنا هذه يعانون كثيرًا، فليس هذا زمن القديسين، ومع ذلك فإنه رجل

حَسُنَ إسلامه وقَوِيَ إيمانه، وتخلص نهائيًّا من كل ظلال الشك في قلبه وعقله، إنه يعيش في جنة الرضا سعيدًا هانئًا..».

****

قالت صوفيا لبينيتو أثناء زيارتها له في سجن الشرطة الاحتياطي:

- «سأرحل يا بنيتيو إلى روما».

قال في إنزعاج:

- «لماذا؟».

- «لقد مللت هذه المسرحية الفجة».

- «وتتركينني يا صوفيا؟.».

- «وماذا أستطيع أن أفعل لك؟».

- «لقد تعاهدنا على الزواج..».

- «أنت الآن سجين».

- «وهل هذا يغير من الاتفاق؟».

- «أنا لا أصلح لك، ولا أنت..».

هَمَّ أن يبطش بها، لكنه تذكر أنه رهن المحاكمة سجين خارج وطنه، واحمرَّ وجهه غضبًا، وتندى جبينه بالعرق، وقال بصوت كالفحيح:

- «تعلمين أنني فعلتها مع إريان، وأستطيع أن كررها معك».

- «تقتلني يا بينيتو؟».

- «إذا خنتني».

- «ولماذا تسميها خيانة؟».

- «فماذا تسمينها أنتِ».

- «سنبقى أصدقاء، لقد أعطيتك مني كل ما طلبت».

أمسك بيدها في عصبية وقال:

- «أغريتني.. ودفعتني للجريمة».

- «بل أنت الذي أراد ذلك».

- «لكنك شجعتني عليها يا صوفيا، ووعدتني بأن تكوني معي إلى الأبد».

- «إن سفري ليس معناه أن أتخلى عنك».

- «أعضاء الفرقة الموسيقية رحلوا عن البلاد يا صوفيا، ولم يبق لي هنا أحد سواك..».

وقفت وقبلت رأسه قائلة:

- «سأبقى إلى جوارك..».

ابتسم في سعادة، رمقها في حب، إنها الوحيدة التي بقيت معه، لكن الهواجس سرعان ما لعبت برأسه، فانطفأت ابتسامته، وتغيرت نظرته الوالهة إلى نظرة غضب وتهديد:

- «إذا خدعتني ورحلت، فلن أغفرها لك.. سأقتلك مهما طال الزمن.. إن تعسًا مثلي لم يعد له عزاء سواك..».

عندما غادرته صوفيا تنفست الصعداء، لكأنما انزاح عن كاهلها عبء ثقيل، وتخلصت من كابوس قاس يكاد يزهق أنفاسها، إنها لم تحبه قط، كان مجرد «شيء» لملء الفراغ.

تسلم عبد الله كارلو وهو في المستشفى رسالة جاء فيها:

- «... لقد حزنت أشد الحزن لما أصابك يا عزيزي، وإنني لأدعو لك الله بالشفاء العاجل والصحة الكاملة، وأبارك لك زواجك، وأتمنى لك من كل قلبي حياة هانئة سعيدة، فأنت ملاك طاهر تستحق كل خير.. وبهذه المناسبة أحب أن أخبرك بأني تزوجت «صقر» وأقيم في بلدي.. واعتزلت الرقص إلى الأبد.. وأنا الآن أصلي وأصوم وأستغفر الله.. وقد وعدني صقر بأن يصحبني في موسم الحج القادم إلى بيت الله الحرام لأداء الفريضة.. وأخيرًا.. هل تعلم أنك كنت السبب في هدايتي إلى الإسلام الصحيح.. ما أعجب الأقدار..».

المخلصة

شمس

كان وجه عبد الله كارلو يتطلق بشرًا وفرحًا وهو يتابع سطور الرسالة، وكانت زوجته ميسون تقف إلى جواره وعيناها تتابعان السطور، ثم تعود لتنظر إلى وجه زوجها، وحينما طوى الرسالة قال ميسون في غضب:

- «إنها الآن في عصمة رجل، فماذا تقصد بهذه الرسالة؟».

- «لا شيء سوى الندم والاعتذار».

- «بل تريد أن تقول لك أنها أصبحت كما تريدها».

- «ثم ماذا؟؟».

- «لعلك تفكر في الزواج منها..».

- «كيف وهي متزوجة؟».

- «يمكنها أن تطلب الطلاق، الراقصة لا تنسى أنها راقصة ولو اعتكفت في خلوة..».

قال عبد الله وهو يتنهد:

- «ما زلت تغارين؟»..

- «أأغار من امرأة كهذه؟».

- «ففقيم الغضب؟».

- «لن ترد على رسالتها..»

- «يبدو أنك نسيت أنك حامل..».

هدأت أعصابها قليلًا، وجلست ساكنة.

قال:

- «إذا كانت بنتًا فأسميها فاطمة الزهراء».

- «وإن جاء ولدًا».

- «سميته محمدًا..».

- «وماذا تتمنى له أن يكون.. طبيبًا.. مهندسًا.. مدرسًا..».

- «بل داعية إلى الله.. الدنيا امتلأت بأصحاب المهن والحرف، لكن القيم الروحية تزوى في الغرب والشرق على السواء. والناس في حاجة إلى من يعيدهم إلى حظيرة الله، عندئذ تُحلُّ كل مشاكل العالم..».

وصمت برهة ثم قال:

- «سأعلم ولدي كيف عاش محمد.. كيف تعامل مع الناس والحياة.. كيف كان يسلك في بيته.. في مسجده.. في معاركه وفي سلمه.. وبعد ذلك أتركه ليختار العمل الذي يناسبه.. هذا ما قرأته لأحد مفكريكم الكبار (الحكيم) فما رأيك يا حبيبتي؟».

قبل أن ترد على عبد الله، أسرع بالقعود وعيناه على باب الغرفة، وهتف فاتحًا ذراعيه:

- «أبي.. هل أتيت أيها الحبيب.. كنت واثقًا أنك ستأتي.. أنا أعرف قلبك الطيب».

احتضن أباه، وتبادلا القبلات، وامتزجت الدموع.

ثم قال الأب وهو يجفف دموعه:

- «ما جئت عاتبًا».

- «أعرف يا أبي».

- «كان قلبي يتمزق ألمًا، لم أستطع الصبر.. تمنيت أن يكون لي جناحان لأطير بهما إليك..».

- «لشد ما اشتقت إليك يا أبي!! أين أمي؟».

- «كان لابد أن تخلد للراحة في الفندق قليلًا من الوقت حتى تأخذ علاجها أولًا..».

وحانت من الأب كارلو التفاتة إلى ميسون، فعاجله عبد الله قائلًا:

- «إنها زوجتى».

وقف الأب قبالتها، وحنى رأسه في احترام وهو يقول:

- «فليبارككما الله..».

ثم التفت إلى ولده قائلًا:

- «إريان يا ولدي.. أريدك أن تعود معنا إلى روما بعد الشفاء.. قد يغير الإنسان دينه، لكنه لا ينسى وطنه..».

قال عبد الله كارلو:

- «معذرة يا أبي.. إن ديني هو وطني».

- «ألن تعود إلينا؟».

- «إذا أراد الله».

- «متى يا ولدي؟».

- «لقد نذرت أن أخرج مع جماعة «التبليغ» في رحلة إلى الهند ندعو الناس فيها إلى الإيمان.. وعندما أو في نذري لله، فسآتي إليكم..».

هزَّ أبوه رأسه، ثم رفع رأسه قائلًا:

- «كل ما أتمناه أن تكون دائمًا بخير..».

- «إن رضا الله هو جماع الخير..».

***

15

كان عبد الله يتعجل الرحيل إلى الهند، فهو يعتقد أن العمر قصير، والمسؤوليات جسيمة، وفرض على المسلم أن يبلغ الرسالة، والعالم يتدهور، وينحدر نحو الهاوية.. يخيل إليه أحيانًا أن ذلك العالم كالغريق الذي يطفو ثم يغوص، ويهتف في استماتة «النجدة.. النجدة»، وواجبه كإنسان أن يخف لنجدة المُعرَّضين للفناء، قد يرى البعض أن الدنيا في ظاهرها اليوم أجمل وأروع ما تكون، وأن ليس في الإمكان أبدع مما يرى في الوجود، لكن نظرة المؤمن الصادق الإيمان –حسب ما يعتقد عبد الله– ترى ما وراء الظاهر، وتستشرف حجب المستقبل، ويلمح نذر العواصف المدلهمة، فيدفعه شوق عارم إلى فعل شيء حقيقي لاستدراك الكارثة.

قال له الشيخ عيد:

– «أو قادر أنت يا عبد الله كارلو أن تصلح هذا العالم الكبير الذي استشرى فيه الفساد!!».

- «ولم لا أحاول؟».

- «لا بئس من المحاولة، لكن تذكر دائمًا أنك قطرة في بحر كبير..».

- «تفجير الذرة يحرق الكون».

- «أجل، لكنه لا يبنيه».

- «والكلمة الصادقة أقوى من الذرة».

- «والكلمات وحدها يا ولدي لا تنشئ كونًا مثاليًا».

- «أهو اليأس يا شيخنا».

- «بل معرفة الواقع على حقيقته.. هناك خلق كثير مثلك.. يتدفقون كالسيول في أنحاء الدنيا.. لو اجتمعوا على الحق لتحول إلى نهر كبير.. عندئذ تخضر الأرض، وتتفتح الزهور.. ويفوح أريج الحب في الأنحاء..».

قال عبد الله كارلو:

- «وأين أجدهم؟».

- «عندما تخرج إلى الدنيا».

- «أريد الخروج..».

- «إذا خرجت فاعمل.. واصبر.. واحتسب».

- «وهل سأجدهم؟؟».

- «هم هناك.. وهم هنا.. لا يخلو منهم مكان ولا زمان».

- «وافرحتاه..».

- «إنهم موجودون.. ومن ثم فإن الأمل موجود.. لقد أراد الله لخلصائه أن يسيحوا في الأرض، حاملين رسالته عبر العصور.. ولذلك كان الخير والشر.. وكانت الدعوة بالرفض والقبول.. وكان النصر والهزيمة.. وكانت الحياة والموت هل فهمت؟».

- «نعم».

- «وماذا فهمت..».

- «أن أمضي في الطريق.. مثلما مضى السابقون».

- «وتذكر أن قلب المؤمن دليله..».

- «أجل..».

- «وأن الطريق لا نهاية له..».

- «هذا حق..».

- «وأن الجزاء الأوفى مؤجل.. ولن تنال في الدنيا منه إلا القليل».

- «وأن الدنيا ساعة أو بعض ساعة كما قلت لنا».

- «وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية يا عبد الله».

- «وأن الأعمال بالنيات يا شيخنا الجليل».

هزَّ الشيخ رأسه قائلًا:

- «وإن لكل امرئ ما نوى».

سادت فترة صمت قال عبد الله بعدها:

- «يؤرقني سؤال».

- «قل، فالسؤال باب المعرفة».

- «لماذا لا نقضي على كل ظالم فاسد؟».

- «العمل على هدايته خير ألف مرة من قتله.. أتذكر حينما قال جبريل لنبينا إن بإمكانه أن يطبق الجبلين على أعدائه؟».

- «نعم أذكر».

- «لم يرد الرسول ذلك أملًا أن يخرج من أصلابهم أبناء يعبدون الله..».

***

على شاطئ الخليج، في ميناء دبي الشهير، وقف الرجال من جماعة التبليغ، ينتظرون الزوارق التي ستنقلهم إلى الباخرة

المبحرة إلى الهند، كانوا يرتدون الجلابيب والعمائم البيضاء، بدوا كفوج من الملائكة الأطهار يهيمون بالطيران في آفاق السماء الصافية الزرقاء.

قالت ميسون لزوجها والدموع تتأرجح في عينيها:

- «أستودعك الله».

- «سبحانه.. لا تضيع عنده الأمانات يا ميسون».

- «خذ حذرك يا عبد الله.. واحذر أن تختفطك المافيا هذه المرة..».

ابتسم في ثقة وإيمان:

- «لقد وهبت عمري لله.. فلم يعد لي فيه إلا ما يخدم الغايات النبيلة التي أعيش من أجلها..».

ثم التفت إليها وكأنه قد تذكر شيئًا مهمًا، وقال:

- «إذا جاءت فاطمة أو جاء محمد فلـ..».

قاطعته قائلةً:

- «قالت لي الطبيبة بعد أن فحصتني بالأشعة فوق الصوتية أني حامل في توأم..».

أخذ يضحك.. حاولت أن توقفه عن الضحك دون جدوى، أفهمته أن الناس ينظرون إليهما، تلفت يمنة ويسرة ثم قال بعد أن كف عن الضحك:

- «أشعر أن حولي جوقات غناء وفرح وموسيقى».

همست مداعبة:

- «ألم تنس الموسيقى بعد؟».

- «وكيف أنساها، كل ما في الامر أن الموسيقى قد تحولت من الخارج للداخل.. إنها الآن تداعب روحي.. موسيقى من نوع آخر.. تتمايل فيها الأرواح طربًا وطهرًا وإيمانًا موسيقى الفطرة السوية..».

شعر عبد الله بيد تربت على كتفه في حنان، وجاءه صوت الشيخ عيد نديًا خاشعًا:

- «هيا يا عبد الله.. لقد حان الرحيل..».

اتجه صوب الزورق وقبل ان يقفز إليه التفت إليها باسمًا هو يقول:

- «لا إله إلا الله».

ردَّدت ميسون بصوت يجرحه البكاء:

- «محمد رسول الله».

تمت

24 من ربيع الثاني 1414هـ

11 اكتوبر 1993م

جمهورية مصر العربية

طنطا

عمارة اللؤلؤة – شارع توت عنخ آمون